

القول بأن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان

الوقفة الأولى

القول بأن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان

ورد هذا القول في كتاب فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (معجزة القرآن) الجزء الثاني الفصل السادس تحت عنوان معجزة الإسراء والمعراج صفحات ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٢.

إنّ هذا القول لا يخرج في معناه عن أحد أمرين :-

أ - إما أن فضيلته يقصد بأن الله موجود في كل مكان بصفاته وليس بذاته أي أنه موجود في كل مكان بسمعه وبصره وعلمه وسطوته ونفوذه وسلطانه وهذا حق لا خلاف عليه ولكن كان ينبغي على فضيلته توضيح هذا المعنى وعدم الإكتفاء بالقول بأن الله موجود في كل مكان حتى لا يعتقد القراء بأنه سبحانه موجود بذاته في كل مكان وهذا هو عين ما اعتقده منحرفو الصوفية الذين قالوا بالحلول أي أن الله حال في كل مكان وطائفة أخرى منهم قالوا بالإتحاد أي أن الله متحد مع خلقه وأن الخالق أصل والمخلوقات فرع من هذا الأصل فالخالق والمخلوق شيء واحد وأطلقوا على ذلك عبارة (وحدة الوجود) ولقد بلغ الأمر بأتباع نظريتي الحلول والإتحاد أن أحدهم قال (أنا الله والله أنا) وقال آخر عن نفسه (سبحاني ما أعظم شأني) وقال ثالث (الخلق منه وإليه) يقصد بذلك وحدة الوجود ، سبحان الله وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

ب - وإما أن فضيلته يقصد بأن الله موجود في كل مكان بذاته وهذا هو ما أخشاه لأن كلامه كله يعطي هذا المعنى بصورة جلية ففي صفحة (٢٥٧) يقول فضيلته : [كشف الله لموسى آياته الكبرى في الأرض وكلمه وهو على الأرض ، وكشف الله لمحمد عليه السلام آياته الكبرى في الملكوت الأعلى وكلمه عند سدرة

المنتهى ، والله موجود في كلا المكانين وفي كل مكان وزمان ، ومن هنا فإن حديث المعراج لم يكن مرتبطاً بتحديد مكان الله سبحانه وتعالى فهو موجود في الأرض وموجود في السماء] .

وفي صفحتي (٢٥٧ ، ٢٥٨) يقول فضيلته :[وهذا دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان وليس كما يقول بعض المتشككين بأن الله قد رَفَعَ إليه محمداً عليه السلام ليكلمه في الملكوت الأعلى ، فالله بالآيتين : كلام موسى على الأرض وكلام محمد في الملكوت الأعلى أعطانا البرهان والدليل على أنه موجود في كل مكان] .

وفي صفحة (٢٦٢) يقول فضيلته : [تعلمنا أن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان يكلم نبياً له وهو على الأرض ويكلم نبيه وهو عند سدرة المنتهى ، ولوكان الله سبحانه وتعالى موجوداً في السموات وحدها ما كلم نبياً له على الأرض ، ولو كان موجوداً في الأرض وحدها ما كلم نبياً عند سدرة المنتهى] .

تعقيباً على ذلك فإننا نرى أن الأعتقاد بأن الله موجود بذاته في كل مكان إعتقاد خاطيء للأسباب الآتية :-

١ - هذا الإعتقاد لا يستند إلى نص شرعي من القرآن أو السنة ولا دليل على صحة هذا القول سوى الإجتهاد واتباع الظن وهذا لا يجوز في المسائل الغيبية بالذات يقول تعالى ﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ [1] فالغيب لا يعلمه إلا الله وحده ورسوله بما أوحي إليه من ربه وبالتالي فإن المصدر الوحيد للمسائل الغيبية هو القرآن والسنة يقول الله تعالى ﴿ **قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ [2] ويقول

(١) آية ٦٨ يونس (٢) آية ٦٥ النمل

﴿ عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيءٍ عددا ﴾ [١] .

٢ - هذا الاعتقاد يتنافى مع العقل والمنطق وتنزيه الخالق فإذا كان الله سبحانه وتعالى موجوداً بذاته في كل مكان فكيف نتصور وجوده في الأماكن النجسة كالحمامات والاسطبلات ؟

وأجسادنا وأجساد المخلوقات من حولنا تشغل أماكن فهل تتواجد ذات الله في أجساد خلقه ؟ معنى ذلك أننا دون أن ندري أيدنا إعتقاد منحرفي الصوفية الذين قالوا بالحلول والإتحاد ووحدة الوجود .

وتعقيباً على قول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (ولو كان الله موجوداً في السموات وحدها ما كلم نبياً له على الأرض) فإنني أسأل فضيلته هل يعجز الله من فوق عرشه ومن فوق سبع سموات أن يكلم نبياً له على الأرض ؟

واذا كان الله قد خاطب نبيه قائلاً **﴿ إن الله يُسمع من يشاء وما أنت بمسمعٍ من في القبور ﴾** [٢] فهل ينبغي أن يكون الله سبحانه وتعالى موجوداً في هذه القبور حتى يُسمع الموتى في قبورهم ؟

وإذا كان الله في كل مكان فهل هو من سكان هذه القبور ؟

وإذا كنا نعتقد أن الله موجود بذاته في كل مكان فمعنى ذلك أننا جعلناه تحت أقدامنا ... أليس ما تحت أقدامنا يعد مكاناً ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

٣ - هذا الإعتقاد يصطدم ويتنافي مع نصوص في القرآن والسنة دالة على

---

(١) آيات ٢٦ . ٢٧ . ٢٨ الجن (٢) آية ٢٢ فاطر

أن الله عز وجل موجود بذاته في السماء التي هي أعلى من كل سماء وأنه فوق عرشه ولا أحد يعلم عن الله إلا الله وحده ونبيه بما أوحي إليه من ربه ﴿ **قل ءأنتم أعلم أم الله** ﴾ [1] وقد تواترت النصوص الشرعية على ذلك ومنها على سبيل المثال قوله تعالى عن ملائكته عامة الذين هم سكان السموات السبع وحملة العرش والحافين من حوله ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [2] ، وقوله ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ [3] والملائكة وحملة العرش والحافين من حوله من عباده ، وقوله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [4] ، وقوله ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ [5] أي علا واستعلى فوق العرش ، علماً بأن العرش هو سقف هذا الكون ، والجنة التي وصفها الله بأنها عالية ﴿ **في جنةٍ عالية** ﴾ [6] أعلاها جنة الفردوس الأعلى وسقفها عرش الرحمن يقول رسول الله ﷺ (الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلاها درجة وأوسطها وفوقها عرش الرحمن) [7] ، فلا شيء أعلى من العرش إلا الله سبحانه وتعالى يقول النبي ﷺ (والعرش فوق ذلك والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه) [8] وفي رواية (والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم) [9] .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ [10] ، وقوله ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ [11] وقوله لعيسى عليه السلام ﴿ **إني متوفيك ورافعك إليّ** ﴾ [12] ، وقوله عنه ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ [13] .

ومن الفطرة أن يرفع الإنسان يده إلى السماء عند الدعاء وهكذا كان يفعل

---

(١) آية ١٤٠ البقرة
(٢) آية ٥٠ النحل
(٣) آيتي ١٨ ، ٦١ الأنعام
(٤) آية ٥ طه
(٥) آية ٥٤ الأعراف
(٦) آية ٢٢ الحاقة
(٧) رواه البزار وأحمد والترمذي
(٨) رواه أبو داود والطبرني في الكبير
(٩) أخرجه أبو داود
(١٠) آية ٤ المعارج
(١١) آية ١٠ فاطر
(٢) آية ٥٥ آل عمران
(١٣) آية ١٥٨ النساء

الأنبياء والصالحون على مر الأزمان وفي ذلك دلالة على أن الله موجود بذاته في السماء .

وابراهيم عليه الصلاة والسلام حينما كان غلاماً وألهمه الله رشده بحث عن ربه بالفطرة في ملكوت السماء فنظر إلى الكوكب ثم إلى القمر ثم إلى الشمس دلالة على أن ذات الله يجب أن تكون عالية وأن يكون الله بائناً بذاته عن خلقه [١] ، وهكذا فعل محمد ﷺ حينما حببت إليه قبلة إبراهيم عليه الصلاة والسلام فجعل يدعو ربه ناظراً إلى السماء راجياً أن يأتيه الوحي من ربه بالتوجه إليها قال تعالى ﴿ **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فولِ وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ [٢] ولقد جاء ذكر الكتب السماوية في القرآن الكريم مرتبطة بألفاظ (أنزل ، نزل ، منزل ، تنزيل) للدلالة على أنها منزلة من الله إلى خلقه أي من أعلى إلى أسفل ومنها على سبيل المثال قوله تعالى ﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً** ﴾ [٣] ، ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم ، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل ، من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان** ﴾ [٤] ، ﴿ **إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً** ﴾ [٥] ، ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ [٦] ، ﴿ **والذين ءاتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق** ﴾ [٧] . أما قوله تعالى عن نفسه ﴿ **ءأمنتم مَنْ في السماء** ﴾ [٨] وقول نبيه ﷺ (ألا تأمنوني وأنا أمين مَنْ في السماء) وسؤاله للجارية (أين الله ؟ قالت : في السماء)[٩] هذه السماء المشار إليها ليست إحدى السموات السبع حتى يظن الجاهل أن الله منحصر بداخلها أو متحيز ولكنها هنا

---

(١) انظر تفسير في ظلال القرآن وفتح القدير
(٢) آية ١٤٤ البقرة
(٣) آية ١ الكهف
(٤) آيات ٢ . ٣ . ٤ آل عمران
(٥) آية ٢٣ الإنسان
(٦) آية ١ الزمر
(٧) آية ١١٤ الأنعام
(٨) آية ١٦ الملك
(٩) رواه مسلم

بمعنى العلو المطلق فإذا قلنا (الله في السماء) فإن المعنى (الله في العلو) أي في العلـو المطلق لا يعلوه شيء ولذلك فإنه سبحانه هو الأعلى يقول تعالى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى**﴾ [١] ، وإذا قلنا (الله في سمائه) فإن المعنى (الله في عليائه ليس معه أحد مستقل بذاته وبائن عن مخلوقاته) ، وقد قيل أيضاً في تفسير (ءَأمنتم مَنْ في السماء) أي مَنْ على السماء مثل قوله تعالى ﴿ **قل سيروا في الأرض** ﴾ [٢] ومعناها (سيروا على الأرض) ، وبذلك يكون معنى (استوى على العرش) أي علا وارتفع [٣] أي أن مستوى علوه سبحانه فوق علو العرش .

٤ - لعل الدافع إلى الظن بأن الله موجود بذاته في كل مكان الرغبة في تنزيه الله عن أن يحصره مكان أو زمان أو أن تكون له جهة معينة ومحددة وهذا هو ما صرح به فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه (معجزة القرآن) وهذا حق لا خلاف عليه فالله عز وجل كما أنه منزه عن أن يحصره زمان فهو أيضاً منزه عن أن يحصره مكان أو جهة ولا تعارض بين ذلك وبين ما ذكره الله ورسوله ﷺ من أنه تعالى فوق عرشه وسمواته فالكون ليس مستطيلاً حتى إذا قيل بأن الله في أعلاه نكون بذلك قد حصرناه وحددنا إتجاهه ولكن الكون عبارة عن حلقات دائرية يلتف بعضها حول بعض فكل سماء أكبر من السماء التي تحتها وتحيط بها إحاطة كاملة وكذلك الكرسي يحيط بالسموات السبع إحاطة كاملة ، يقول عليه الصلاة والسلام (ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرضٍ فلاة) [٤] وهذا دليل على أن السموات السبع والأراضين السبع دوائر يلتف بعضها حول بعض بحيث تحيط السماء السابعة بكل ما تحتها من سموات وأراضين وقد عبر النبي ﷺ عن ذلك بلفظ (حلقة) ، وإحاطة الكرسي بالسموات والأرض مماثل لإحاطة الصحراء بالحلقة الملقاة بداخلها [٥] ، ليس هذا فحسب بل إن الكرسي أشد إتساعاً من السموات والأرض

---

(١) آية ١ الأعلى (٣) أنظر أركان الإسلام والايمان لمحمد بن جميل زينو ص٩٠ (٥) ذكرت الإحاطة في صفوة التفاسير وفي الأجوبة الاصولية ص٧٣
(٢) آية ٦٩ النمل (٤) أخرجه ابن جرير

والفارق بين سعة كل منهما كالفارق بين سعة الصحراء وتلك الحلقة وهذا يتفق مع قوله تعالى ﴿ **وَسِعَ كرسيه السموات والأرض** ﴾ [١] فإنه تعالى قال (وَسِعَ) ولم يقل (وِسْعُ) ففُهم من ذلك أن الكرسي ليس مطابقاً لهما في الوسع بل أشد إتساعاً منهما (جاء في صفوة التفاسير وفي الأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص٧٦ أن الكرسي أوسع من السموات والأرض) .

ثم نجد أن العرش قد أحاط بالكرسي وبما تحته إحاطة كاملة يقول عليه الصلاة والسلام (وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة) [٢] وفي رواية (ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهراني فلاة من الأرض) [٣] .

ومما يؤكد هذه المعاني جميعها ما جاء في مختصر تفسير ابن كثير المجلد الثاني ص ٢٦٨ ونصه : [فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها مرتفعة عليها من كل جانب على السواء ، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت وهكذا إلى السابعة ، وفي الحديث : (ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة)] .

والله عز وجل أكبر من العرش وأعلى منه بدليل أنه خلق ملائكة حافين من حول العرش يحيطون بالعرش وهو تعالى يراهم ويرى الحواف الخارجية للعرش يقول تعالى ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم** ﴾ [٤] وهذا دليل على علوه فوقهم وإحاطته بهم ، يقول تعالى عن ملائكته ومنهم حملة العرش ومَنْ حوله ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ [٥] ويقول ﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ [٦] من أجل ذلك فإننا نبدأ صلاتنا قائلين (الله أكبر) ،

---

(١) آية ٢٥٥ البقرة
(٢) أخرجه ابن جرير
(٣) أخرجه ابن جرير
(٤) آية ٧٥ الزمر
(٥) آية ٥٠ النحل
(٦) آيتي ١٨ ، ٦١ الأنعام

ونقول في ركوعنا (سبحان ربي العظيم) ، ونقول في سجودنا (سبحان ربي الأعلى) فهو سبحانه أكبر وأعظم وأعلى من كل شيء تخيلناه أو لم نتخيله .

والله عز وجل قد أحاط بالعرش والكون بأكمله فهو الواسع الذي وَسِعَ كل شيء والمحيط الذي أحاط بكل شيء فلا شيء يحيط به ومصداق ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطاً** ﴾ [١] ، ﴿ **إن الله واسع عليم** ﴾ [٢] ، ﴿ **ألا إنه بكل شيء محيط** ﴾ [٣] ، ﴿ **والله من ورائهم محيط**﴾ [٤] ، ﴿**وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس** ﴾ [٥] ، ﴿ **والله محيط بالكافرين** ﴾ [٦] ، جاء في كتاب الأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص ٧٧ ما نصه : [علو الله على خلقه وإحاطته سبحانه لهم مع أنه فوقهم] .

ومادام الله محيط بالكون إحاطة كاملة فإنه سبحانه لا يحصره حيز ولا يحده مكان ولا ينحصر في جهة دون أخرى بل هو موجود في جميع الجهات ولكن فوق سمواته وفوق عرشه ففي أي موضع يقف فيه الإنسان على ظهر الأرض جهة شمال الأرض أو جنوبها أو شرقها أو غربها أو في نصفها العلوي أو السفلي فستكون السماءُ من فوقه والله فوقه وفوق السموات ومحيط بها وبخلقه جميعاً وبالكون بأكمله ولكنه سبحانه مستقل بذاته وبائن عن مخلوقاته ، والدليل على أنه سبحانه لا ينحصر في جهة دون جهة قوله تعالى ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثمَّ وجه الله إن الله واسع عليم** ﴾ [٧] فالله عز وجل موجود في جميع الجهات وما ذاك إلا لأنه واسعٌ قد أحاط بهذه الجهات جميعاً عليمٌ بمن تولى بوجهه تلقاء أيٍ من هذه الجهات يسمعه ويرى مكانه .

وبالطبع فإن القول بأن الله موجود في جميع الجهات ولكن فوق سمواته وفوق

---

(١) آية ١٢٦ النساء
(٢) آية ١١٥ البقرة
(٣) آية ٥٤ فصلت
(٤) آية ٢٠ البروج
(٥) آية ٦٠ الإسراء
(٦) آية ١٩ البقرة
(٧) آية ١١٥ البقرة

عرشه يختلف تماماً عن القول بأنه في كل مكان في الأرض وفي السماء لأن القول الأخير يعني أنه فوق الخلق وحولهم وأسفل منهم وأنه مختلط وممتزج بهم ومتحد معهم وهذا لا يجوز في حق الله تنزيهاً لقدره يقول تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [1] .

ويمكننا الإستدلال من قوله تعالى ﴿ **هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم** ﴾ [2] أن قوله (هو الأول والآخر) تعني أنه سبحانه لا يحده ولا يحصره زمان لأنه هو خالق الزمان وأن قوله (الظاهر والباطن) تتسع لمعانٍ كثيرة إحدى هذه المعاني أنه سبحانه لا يحده ولا يحصره مكان لأنه أحاط بالكون كله ظاهره وباطنه وأعلاه وأسفله فصار يعلم ويسمع ويرى ظاهر الأمر وباطنه وعلانيته وسره فلا شيء يخفى عليه أو يحتجب عنه .

جاء في كتاب الأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية ص٧٦ ما نصه : [هو الأول والآخر والظاهر والباطن فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة زمانياً ومكانياً] يفهم من ذلك أن الله خارج حدود الزمان والمكان لأنه سبحانه أحاط بالزمان والمكان .

٥ - إن فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي لو أمعن النظر قليلاً في مقولته : [إن الله موجود في كل مكان وزمان] لوجدها «على عكس ما كان يعتقد » تتعارض تماماً مع تنزيه الله عن عن أن يحده أو يحصره مكان أو زمان والأولى والأصح والأدق أن يقال بأن الله جل شأنه خارج عن حدود المكان والزمان .

وكلمة (المكان) تعنى السموات والأرض وما بينهما أو بتعبير أدق الكون الذي خلقه الله ، والله عز وجل هو خالق المكان وهو سبحانه أكبر منه فإذا قلنا أنه موجود بذاته في كل مكان فإننا بذلك نكون قد حصرناه داخل الكون الذي خلقه

---

(١) آية ١١ الشوري (٢) آية ٣ الحديد

وقد تبين لنا مما سبق ومن النصوص القاطعة بالكتاب والسنة أن الله جل شأنه فوق عرشه وفوق سمواته وأكبر من كل شيء وأعلى من كل شيء ومحيط بكل شيء فهو الكبير المتعال الواسع المحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء وبذلك يكون الله عز وجل خارج عن حدود الكون أو المكان الذي خلقه ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ (كان الله قبل كل شيء) [١] أي قبل أن يخلق المكان فكيف نقول بأنه سبحانه في كل مكان ؟

والله عز وجل هو الغني الحميد أي الغنى في ذاته المستغني عن خلقه ولذلك فهو لا يحتاج إلى طعام ولا شراب ولا هواء ولا غير ذلك من مقومات الحياة فهو سبحانه الحي القيوم القائم بذاته قبل أن يخلق الخلق ، وبناء على ذلك فإننا لو قلنا بأن الله موجود بذاته في كل مكان وحصرناه داخل كونه فإننا نكون بذلك قد جعلناه فقيراً ومحتاجاً إلى هذا الكون الذي خلقه ليكون مكاناً لإقامته فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

يقول تعالى في الحديث القدسي (ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن) [٢] معنى الحديث أنه سبحانه خارج عن حدود الأرض والسموات وخارج عن حدود المكان ولكنه موجود معنوياً وليس مادياً في قلب عبده المؤمن .

ولا حرج إذا قلنا بأن الله موجود في كل مكان بصفاته (وليس بذاته) أي بسمعه وبصره وعلمه وسطوته ونفوذه وسلطانه ورحمته وقهره وبطشه والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن والسنة نذكر منها قوله تعالى ﴿ **ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ [٣] فالآية ذكرت أن الله معنا في كل مكان

---

(١) رواه البخاري ومسلم (٢) الحديث لم يصح ومعناه صحيح (٣) آية ٤ الحديد

بصفاته حيث ختمت الآية بلفظ (بصير) ولكنها ذكرت في مطلعها أن الله موجود بذاته مستوياً على العرش ومثل ذلك قول النبي ﷺ (والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه) [١] فالله بذاته فوق العرش ولكنه معنا بصفاته يسمعنا ويرانا ويعلم ما نحن عليه ، وأيضاً قوله تعالى ﴿ **إنني معكما أسمع وأرى** ﴾ [٢] ، وهكذا جميع الآيات القرآنية المشابهة تفسر بهذا المعنى .

كذلك ينبغي أن يقال بأن الله سبحانه وتعالى خارج عن حدود الزمان بدلاً من القول بأنه موجود في كل زمان لأن القول الأخير يعني أن وجوده مرتبط بالزمان وأنه يتأثر ويتغير بتغير الزمان وبأن الزمان يحد الوجود الإلهي ويحصره فحيثما كان الله موجوداً كان الزمان موجوداً وبذلك نكون (وبدون أن ندري) قد جعلنا الزمان سابقاً على وجود الله وجعلناه هو الأول وليس الله جل شأنه ، ولذلك فمن الخطأ أن نتساءل هل كان الله موجوداً منذ خمسمائة ألف مليون سنة أو أكثر ؟ لأننا بذلك قد جعلنا الزمن مقياساً ومعياراً وحكماً على وجود الله كما أنه معيار ومقياس لحياة المخلوقات وأعمارهم وهذا خطأ فادح لأن الله سبحانه وتعالى هو الأول وهو خالق الزمان ولا ينبغي أن يحده أو يحصره زمان ويكفي أن يقال ما قاله رسول الله ﷺ (كان الله قبل كل شيء) [٣] فلا تقدير للزمان بأعوامه في الأزل لأنه لم يكن قد خُلق بعد ، يقول تعالى في الحديث القدسي (يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار) [٤] فالله عز وجل هو الحي حياة ممتدة أزلية سرمدية فالزمان له بداية أما الله فهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية ولذلك فإنه سبحانه خارج عن حدود الزمان .

٦ - إن القول بأن الله سبحانه موجود بذاته في كل مكان يعد إنقاصاً لعظيم شأن الله وقدره فقد ثبت من القرآن الكريم أن الله يقبض الأرض ويطوى السموات

---

(١) رواه ابو داود (٢) آية ٤٦ طه (٣) رواه البخاري ومسلم (٤) رواه مسلم

السبع بيمينه يوم القيامة كطي السجل للكتب ، كما ثبت عن رسول الله ﷺ أن الجبار سبحانه وتعالى يحمل السموات السبع والأراضين السبع وما بينهما وما فيهما من الخلق والشجر والجبال والبحار على أصابعه يهزهن (استهزاءً بثقلهن) ويقول أنا الله أنا الملك أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ فقد روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال (يقبض الله تعالى الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض ؟) ، وفي رواية للشيخين (جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال يا محمد إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع والجبال والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع ثم يهزهن فيقول أنا الملك فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر) ، كما أخرج مسلم وابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال (ما السموات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم) ، وفي رواية لابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال (يطوي الله السموات السبع بما فيها من الخليقة والأرضين السبع بما فيها من الخليقة يطوي ذلك كله بيمينه يكون ذلك كله في يده بمنزلة خردلة) ولا يقول ابن عباس رضي الله عنه ذلك إلا إذا سمعه من رسول الله ﷺ .

كيف يتصور هذا الإله موجوداً بذاته في كل مكان داخل الأرضين والسموات ؟ إن من يقولون ذلك ما قدروا الله حق قدره وقطعاً تشملهم صدر الآية الكريمة ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [1] .

وجهنم أعاذنا الله منها يهابها جميع الخلائق حتى الملائكة العظام في خلقتهم ولا يقدر عليها إلا الله وحده وهي مع عظيم سعتها التي فاقت سعة الجنة

---

(١) آية ٦٧ الزمر

والسموات والأرض فإنها تتضاءل أمام عظمة الإله الخالق ففي الحديث (لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العـزة فيهـا قدمـه فينـزوي بعضهـا إلى بعـض وتقـول قـط قـط بعزتك وكرمك «أي اكتفيت») [1] ، وهذا الحديث الشريف مع ما فيـه من الدلالة على عظيم شأن الله جل جلاله فإن ذكر القدم يعطي الدلالة أيضاً على مدى احتقار الله للكافرين المعذبين وهوانهم عليه كأحدنا يحطم الحشرات بقدمه إحتقاراً لها فضلاً عن كونهم محجوبون عن رؤية ربهم ، وعلى النقيض من ذلك فإن أهل الجنة مكرمون وهل هناك تكريم أعظم من أن يطلع عليهم ربهم بوجهه الكريم فيملأ عليهم سماء الجنة التي ذكر الله أن عرضها كعرض السموات والأرض فينظرون إليه دون أن تحيط أبصارهم بذاته بل يرونه فقط ما شاء الله أن يريهم من ذاته يقول تعالى ﴿ **وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ [2] فيسلم عليهم ويخاطبهم ﴿ **سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم** ﴾ [3] ، ولم يقل أحد أنه سبحانه في كل مكان داخل الجنة وإنما ملائكته هم الذين يدخلون عليهم من كل باب يسلمون عليهم ويرحبون بهم . إن شأن الله عظيم وإن آية الكرسي أعظم آية في القرآن الكريم قد ختمها الله بقوله ﴿ **وهو العلي العظيم** ﴾ ليبين لنا بأنه سبحانه أعلى وأعظم من كل شيء فالكون بكامله حقير وضئيل مقارنة بالإله الخالق تبارك وتعالى .

الفرق بين الإحاطة بذات الشيء والإحاطة بالشيء علماً:

إعلم أخي القاريء أن الإحاطة بالشيء علماً أعم وأشمل من الإحاطة بذات الشيء لأن الأخير يدخل ضمن الأول ويندرج تحته .

إن الإحاطة بالشيء علماً تعني أموراً ثلاثة مجتمعة وهي العلم بذات الشيء ، والعلم بإسم الشيء وصفاته ، والعلم بأفعال الشيء .

---

(١) رواه مسلم (٢) آيتي ٢٢ ، ٢٣ القيامة (٣) آية ٥٨ يس

إذا أحطنا بذات لشيء ورأيناه نكون قد علمنا جانباً من علم ذاته لأننا حينئذٍ نستطيع أن نصف حجمه وأبعاده ولونه وشكله وسائر أوصافه ، والرؤية يتم العلم بها كغيرها من الحواس كالسمع والشم واللمس والتذوق .

وإذا عرفنا المادة التي خُلق أو صُنع منها هذا الشيء نكون قد علمنا جانباً آخر من علم ذاته ، وإذا عرفنا كنه ذات الشيء وكيفية نشأته وبداية أمره ونهاية أجله والتغيرات التي طرأت على ذاته على مدى سنين عمره نكون بذلك قد علمنا بالجانب الأخير من علم ذاته أو بمعنى أدق أحطنا بعلم ذاته وهذا هو الفرع الأول من فروع الإحاطة بالشيء علماً .

وإذا عرفنا إسم الشيء وأدق تفاصيل صفاته وطباعه وعيوبه ومزاياه نكون قد أحطنا علماً بالفرع الثاني من فروع الإحاطة بالشيء علماً وهو العلم بالأسماء والصفات .

وإذا عرفنا كل ما يصدر من هذا الشيء على إمتداد حياته من أفعال حسية ونشاطات ذهنية وخلجات نفسية ونوايا وأحاسيس ومشاعر قلبية نكون قد أحطنا علماً بالفرع الثالث من فروع الإحاطة بالشيء علماً وهو العلم بالأفعال .

والخالق جل شأنه قد أحاط بكل شيء علماً وهذا التعبير أعم وأشمل من قولنا بأنه سبحانه قد أحاط بذوات الأشياء فقوله تعالى ﴿ **وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً** ﴾ [1] أعم وأشمل من قوله تعالى ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطاً** ﴾ [2] وذلك لأن إحاطة الله بمخلوقاته علماً تعني أنه أحاط بذوات مخلوقاته وعَلِمَ أوصافها وأحجامها وأبعادها وألوانها وأشكالها وعَلِمَ مادة خلقها أو المادة المصنعة منها وكيفية خِلْقتها أو صنعتها وكنهها وبداية أمرها ونهاية أجلها وما مرت به من تغييرات على مدى عمرها ، ليس هذا فحسب بل إنه عَلِمَ أسماء هذه المخلوقات

---

(١) آية ١٢ الطلاق (٢) آية ١٢٦ النساء

وصفاتها وطبائعها وعيوبها ومزاياها ، بالإضافة إلى ذلك فإنه سبحانه عَلِمَ أقوالها وأفعالها وأفكارها وخواطرها ونواياها وآثارها وخُطاها يقول تعالى ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ (١) .

وتدوين الأقدار دليل على إحاطة علم الله بأفعال المخلوقات قال عليه الصلاة والسلام (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) (٢) وعنه صلى الله عليه وسلم (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلي يوم القيامة) (٣) . نخلص من ذلك بأن إحاطة الله بذوات المخلوقات تدخل ضمن إحاطته سبحانه وتعالى بمخلوقاته علماً .

وبالمثل فإن ما قرره القرآن الكريم من إستحالة إحاطة المخلوقات بالله علماً وذلك في قوله تعالى ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً** ﴾ (٤) هذه الإستحالة تعني - كما جاء في كتب العقيدة - إستحالة الإحاطة بعلم ذات الله ، وإستحالة الإحاطة بعلم أسماء الله وصفاته ، وإستحالة الإحاطة بعلم أفعال الله وسوف نبين كل أمر من هذه الأمور الثلاثة :-

أ - إن إستحالة إحاطة المخلوق بعلم ذات الله تعني إستحالة إحاطته بذات الله لأنه إذا أحاط بذاته ورآه يكون قد علم جانباً من علم ذاته وعرف بعض أوصاف ذاته يقول تعالى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (٥) .

والمخلوق لا يستطيع الإحاطة بالجوانب الأخرى من علم الذات الإلهي فهو لا يعرف كنه ذات الله يقول تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾ (٦) ، جاء في كتب التفاسير أن رجلاً من فراعنة العرب بعث إلى رسول الله ﷺ يسأله

---

(١) آية ١٤ الملك
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه مسلم
(٤)آية ١١٠ طه
(٥) آية ١٠٣ الأنعام
(٦) آية ١١ الشورى

ساخراً أخبرني عن ربك من أي شيءٍ هو ؟ أمن ذهب هو ، أم من فضة ، أم من نحاس ؟ فأرسل الله عليه صاعقة من السماء فصعقته ونزل فيه قوله تعالى ﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال** ﴾ [1] . إن المخلوق مطالب فقط بأن يعلم بأن الله هو الأول وليس قبله شيء وهو الآخر وليس بعده شيء دون أن يفكر بعقله في ذات الله ليس فقط لأن عقله وخياله من الضآلة بحيث يعجزان عن الإحاطة بعلم ذات الله ولكن لأن عقل المخلوق لا يصلح أصلاً لذلك حتى ولو بلغ حجمه الكون بأكمله وذلك لأن العقل يبني أحكامه على العلم الكوني أو القوانين العلمية المخلوقة والله عز وجل سابق على هذه القوانين العلمية خلقها واستحداثها من العدم فكيف يستعان بالمستحدث للحكم على القديم الأزلي ؟ من هنا فإن عقل الإنسان وعلمه لا يستطيعان الإحاطة بعلم ذات الله ليس لضآلتهما وقصورهما ولكن لأنهما أداتان لا تصلحان لذلك فإنه لا يحيط بعلم ذات الله إلا علم الله الأزلي المحيط .

قال عليه الصلاة والسلام (إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول من خلقك ؟ فيقول الله فيقول فمن خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله)[2] فلا مجال هنا للإحتكام للعقل وإنما هو الإيمان بالقلب فقط .

ب - أما فيما يتعلق بإستحالة الإحاطة بعلم أسماء الله وصفاته فإن النبي ﷺ أخبرنا بتسعة وتسعين إسماً لله من أحصاها دخل الجنة وليست هذه هي كل أسماء الله وصفاته فلله أسماء وصفات قد استأثر بها في علم الغيب عنده لا تعلمها الخلائق ولا يستطيعون حصرها ولا الإحاطة بها يدل على ذلك الدعاء الوارد عن رسول الله ﷺ (أسألك بكل إسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك) [3] .

---

(١) آية ١٣ الرعد (٢) رواه أحمد (٣) رواه أحمد

جـ - أما فيما يتعلق باستحالة الإحاطة بعلم أفعال الله فهذا شيء بديهي لأن لله أفعالاً قبل بدء الخليقة وأفعالاً بعد هلاكهم وفنائهم وأفعالاً في حياتهم لا يعلمون عنها شيئاً ، والكون بما فيه من قوانين ونواميس علمية هي من فعل الله ولذلك فإن الإنسان عاجز عن الإحاطة بجميع هذه القوانين العلمية علماً بأنها قوانين مخلوقة ومستحدثة يقول تعالى ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ (١) .

والله يعلم ما في نفوسنا ولا نعلم ما في نفسه يقول تعالى عن مخاطبة عيسى عليه السلام لربه ﴿ **تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب** ﴾ (٢) .

نخلص من ذلك أن المخلوقات يستحيل عليها الإحاطة بالله علماً لأنه يستحيل عليها الإحاطة بذات الله وعلم ذاته ، والإحاطة بعلم أسمائه وصفاته ، والإحاطة بعلم أفعاله وهذا هو ما أكده الله عز وجل بقوله ﴿ **ولا يحيطون به علماً** ﴾ (٣) .

ولكن لا مانع من الإحاطة بشيء ضئيل جداً من علم الله في كل فرع من هذه الفروع الثلاثة إذا شاء الله ذلك يقول تعالى ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ (٤) .

فالله عز وجل يطّلع بذاته على أهل الجنة فينظرون إلى ربهم وقد ملأ عليهم سماء الجنة يقول تعالى ﴿ **وجوه يومئذٍ ناضرة ، إلى ربها ناظرة** ﴾ (٥)، والله عز وجل أكبر من سماء الجنة ولذلك فإن أهل الجنة لا تحيط أنظارهم بذات الله ولكنهم يرون فقط ما شاء الله أن يريهم من ذاته .

وبالنسبة لعلم الأسماء والصفات فلا مانع أن يحيط المخلوق بشيء ضئيل جداً

---

(١) آية ٨٥ الإسراء
(٢) آية ١١٦ المائدة
(٣) آية ١١٠ طه
(٤) آية ٢٥٥ البقرة
(٥) آيتي ٢٢، ٢٣ القيامة

من أسماء الله وصفاته أعلمه الله لنبيه الكريم وهي لا تزيد كثيراً عن تسعة وتسعين إسماً من عددٍ لا حصر له من الأسماء والصفات لا يعلمه إلا الله .

أما بالنسبة لعلم أفعال الله فلا مانع أن يحيط المخلوق بشيء ضئيل جداً من أفعال الله كالأفعال التي أطلع الله عليها خلقه أو التي أعلم بها أنبياءه ليبلغوا أقوامهم بها ، وكذلك القوانين العلمية التي خلقها الله ليسير عليها الكون بإذن الله هي أيضاً من فعل الله وقد أمكن للإنسان أن يحيط بشيء منها بإذن الله ومشيئته .

نخلص من ذلك أن المخلوقات يستحيل عليها الإحاطة بالله علماً كما يستحيل عليها الإحاطة بعلم الله أما إحاطتها بشيء ضئيل من علم الله في أي فرع من الفروع الثلاثة علم الذات أو علم الأسماء والصفات أو علم الأفعال فهذا جائز وممكن إذا شاء الله ذلك وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ [١] .

حديث النزول :

ما سبق ذكره لا يتعارض مع حديث النزول ، قال عليه الصلاة والسلام (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفرله) [٢] . لقد أجمعت النصوص القاطعة من الكتاب والسنة على أن الله جل شأنه هو العلي الأعلى فوق خلقه مصداقاً لقوله ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ [٣] وأنه فوق عرشه وسمواته وأنه هو الأكبر والأعظم يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء .. ومن المحال أن يتعارض هذا النص الشرعي مع النصوص الشرعية الأخرى لذلك فإنني

---

(١) آية ٢٥٥ البقرة (٢) متفق عليه (٣) آية ١ الأعلى

أرى أن حديث النزول يمكن تفسيره بأحد أمرين :-

أ - هذا النزول الإلهي إلى السماء الدنيا وخطابه لعباده من سكان الأرض شبيه بما حدث في الوادي المقدس حيث كلم الله موسى تكليماً فقد شهد هذا الوادي المقدس نزولاً للأنوار الإلهية يتمثل في رؤية موسى عليه السلام للنار من بعيد فلما اقترب منها ورفع رأسه وجد نورها متصلاً بعنان السماء ، قال ابن عباس وغيره (لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج هو نور رب العالمين) ثم أتبع ذلك نزولاً لكلام الله على موسى ، ولما جاء موسى بعد ذلك في نفس هذا الوادي المقدس لميقات ربه وسأل ربه أن يريه ذاته حينئذٍ تجلى الله لجبلٍ في هذا الوادي فجعله دكاً وسقط موسى مغشياً عليه .

بطبيعة الحال فإن نور الله وكلام الله وجلال الله جميعها صفات تتعلق بالذات الإلهية ليست مخلوقة فنزولها على المخلوق سواء كان سماءً أو أرضاً يعد بمثابة نزول للإله بخلاف لو أنزل الله ملائكته فإنه لا يعد نزولاً للإله لأن الملائكة مخلوقة . وبناء على ذلك فإن حديث النزول ربما يكون معناه أن الرب جل شأنه ينزل إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل بأنواره فتشرق السماء بنور ربها وبتجلياته وبكلامه فيقول من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له .

ب - وقد يكون النزول الإلهي إلى السماء الدنيا نزولاً حقيقياً للذات وليس للصفات من منطلق أن الله لا يعجزه شيء وهو على ما يشاء قدير وحتى على إفتراض حدوث ذلك فإن هذا النزول لابد أن يليق بذات الله بمعنى أنه لا يعني الإنتقال بالكلية من مكانٍ إلى مكان وإنما يكون نزولاً إلى السماء الدنيا مع إحتفاظه سبحانه باستواء ذاته فوق العرش وعلوه فوق خلقه وهذا من الممكن تصوره لو وضعنا نصب أعيننا أن الكون ضئيل مقارنة بعظمة الخالق وأنه في كف الرحمن كالخردلة في يد أحدكم كما قال الصحابي ابن عباس رضي الله عنه ، فنزوله

سبحانه إلى السماء الدنيا على افتراض ذلك لا يتعارض مع كونه فوق عرشه فإن الله أكبر وأعظم من أن تؤثر عليه مسافة ما بين السماء الدنيا والعرش ، كما أن نزوله سبحانه لا يترتب عليه إتحاده أو إمتزاجه أو إختلاطه بأحدٍ من خلقه من سكان هذه السماء الدنيا ، ولا ينبغي لهذه السماء أن تحيط به أو أن يعلوه شيء ، نقول ذلك لأن من الصفات الثابتة للذات الإلهية التي لا تتبدل ولا تتغير كونه سبحانه وتعالى هو العلي الأعلى المتعال وأنه هو الأكبر والأعظم والأوسع والمحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء ، كما أنه بائن عن مخلوقاته .

وأفضل ما يقال في هذه المسألة على افتراض نزوله سبحانه نزولاً حقيقياً بذاته إلى السماء الدنيا أننا لا نعرف كيفية ذاته لأنه ليس كمثله شيء فكيف نعرف كيفية نزول ذاته ؟ الذي نعلمه فقط صفات ذاته ، تلك الصفات المنزهة عن كل نقصان .

أرى أن التفسير الأول أرجح لأنه لو نزل الله سبحانه نزولاً حقيقياً لاحتجب عن سمائه الدنيا وسكانها فإنه لا يراه في الدنيا شيء إلا هلك مثلما حدث للجبل ، قال عليه الصلاة والسلام عن ربه (حجابه النور «أو النار» لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) [١] ، وجهنم لم تقو عندما وضع الرب تبارك وتعالى قدمه فيها فكيف بالسماء الدنيا ؟ يقول تعالى ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن** ﴾ [٢] ، وفي الحديث الذي رواه ابن جرير (والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن) ، وفي رواية للبخاري (لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله) .

نقول إذا كان إسم الله أثقل منهن في الميزان فكيف بذات الله ؟

---

(١) رواه مسلم (٢) آية ٥ الشوري

آيــة الإتيــان :-

ومن المناسب والضروري جداً أن نقف عند هذه الآية الكريمة لنتبين معناها وهي قوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ (١) لأن من يقرأ هذه الآية الكريمة دون تدبر وإمعان ويقرأ بعض التفاسير الواردة بشأنها يجدها تصطدم مع المعاني السابق ذكرها في هذه الوقفة فقد ذكر أحد المفسرين عند تعرضه لمعنى هذه الآية «أن الغمام ينزل الله فيه من فوق سمواته وتنزل الملائكة » (٢) وقال آخر « ينزل الله في طاقات من الغمام والملائكة حوله » (٣) . إن هذا التفسير للآية الكريمة يُفهم منه أن الله يأتي وسط ظلل من الغمام والملائكة أي تحيط به ظلل من الغمام وتحيط به الملائكة وهذا بلا شك مفهوم خاطيء لأن الله سبحانه وتعالى من صفاته أنه المحيط فهو يحيط ولا يحاط به يقول تعالى ﴿ **وكان الله بكل شيء محيطاً** ﴾ (٤) وقال ﴿ **ألا إنه بكل شيء محيط** ﴾ (٥) فيستحيل على المخلوق أن يحيط بذاته أوبصفاته أو بأفعاله وهو العلي الأعلى الذي يعلو مخلوقاته ولا يعلوه شيء منها لا سمواته ولا عرشه .

أرى أن المعنى الصحيح للآية الكريمة الذي يليق بجلال الله هو (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام يتقدمنه والملائكة معها ينزلون بين يديه) أي أن نزول الغمام والملائكة يحدث أولاً ثم يأتي الله على أثر ذلك يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً** ﴾ (٦) فالآية لم تذكر أن الله ينزل معهما في آنٍ واحد فإذا أضفنا إلى ذلك قوله تعالى ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً** ﴾ (٧) لتبين لنا أن وقت مجيء الله تكون الملائكة مصفوفة في أرض المحشر قد سبقته في النزول وبناء على هذا التفسير الصحيح فإن تشقق السماء

---

(١) آية ٢١٠ البقرة
(٢) انظر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الوسطية ص١٤٣
(٣) انظر فتح القدير الجزء الأول ص٢١١
(٤) آية ١٢٦ النساء
(٥) آية ٥٤ فصلت
(٦) آية ٢٥ الفرقان
(٧) آية ٢٢ الفجر

بالغمام ونزول الملائكة هما علامتان لمجيء الله وإيذاناً بنزوله بذاته على مايليق بجلاله [1] كما جاء في بعض كتب العقيدة ولنضرب مثلاً لذلك ولله المثل الأعلى : ألا ترى أن من علامات مجيء وإتيان أي ملك من ملوك الدنيا أن ترى موكباً من الحاشية والجنود والمركبات يتقدمونه ويسيرون أمامه ؟ أما ما يكون من إحاطتهم له فإن الله منزه عن ذلك .

إن الشاهد على صحة هذا التفسير إنسجامه مع بقية الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تناولت هذا الموضوع حيث لم يرد فيها أن الله عز وجل ينزل هو الغمام والملائكة في وقتٍ واحد حتى يفهم من ذلك أنه سبحانه ينزل وسطها أو محاطاً بها وإنما هذه الآيات والأحاديث قد أجمعت على أن النزول يتم تباعاً على مراحل ففي حديث الصور المشهور الذي رواه ابن جرير عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أن السماء تتشقق وتكون الملائكة على أطرافها ثم ينزل من كل سماء ساكنوها من الملائكة فيحيطون بالخلائق في أرض المحشر صفوفاً متراصة ثم تتشقق السماء بالغمام وينزل الملائكة العظام الكروبيون وحملة العرش يحملون عرش الله ولهم زجل من التسبيح يقولون سبحان ذي الملك والملكوت ، سبحان ذي العزة والجبروت ، سبحان الحي الذي لا يموت ، سبحان الذي يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحانه أبداً أبداً ، ويسألهم الناس أفيكم ربنا ؟ فيقولون لا هو آت ، ثم ينزل الجبار تبارك وتعالى بعد نزول العرش الذي هو سقف هذا الوجود ليظل الله دائماً أبداً هو العلي الأعلى لا يعلوه ولا يحيط به شيء من خلقه فتشرق الأرض بنور ربها ثم يهتف بصوته فيقول يا معشر الجن والإنس إني قد أنصت إليكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا أسمع قولكم وأرى أعمالكم فأنصتوا إليَّ فإنما هي أعمالكم وصحائفكم تُقرأ عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد

---

(١) أنظر العقيدة الوسطية ص١٤٣

غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ثم يأمر بجهنم فيجاء بها يخرج منها عنق ساطع مظلم ثم يقول ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ،هذه جهنم التي كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾ [١] ومما يدل على بطلان تفسير من قال (ينزل الله في طاقات من الغمام والملائكة حوله) ما رواه ابن جرير والديلمي عن رسول الله ﷺ قال (يأتي الله في طاقات من الغمام محفوفات بالملائكة) لم يقل (محفوف بالملائكة) إشارة إلى الله جل شأنه ولم يقل (محفوفان بالملائكة) إشارة إلى الله والغمام ولكنه قال (محفوفات بالملائكة) إشارة إلى الغمام وحدها فدل ذلك على أن الغمام هو المحاط بالملائكة وليس الله جل شأنه كما دل على أنه سبحانه لا ينزل وسط الغمام والملائكة ولا معهما في آنٍ واحد .

أما الآيات القرآنية الدالة على أن الله عز وجل لا ينزل مع الغمام ومع الملائكة في وقتٍ واحد وتتفق مع حديث الصور فهي :-

﴿ **وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية** ﴾ [٢] ، ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً** ﴾ [٣] فهذه الآية ذكرت نزول الملائكة مع الغمام يحفونها ويحيطون بها كما جاء في الحديث النبوي الذي ذكرناه ولم تذكر الآية أن الله ينزل معهما في آنٍ واحد ، ﴿ **وجاء ربك والملك صفاً صفاً ، وجيء يومئذٍ بجهنم** ﴾ [٤] أي أنه وقت مجيء الله تكون الملائكة مصفوفة في أرض المحشر قد سبقته في النزول .

ولقد ورد في كتب التفاسير أن الغمام هو السحاب الرقيق الأبيض الذي يغم

---

(١) الآيات من ٥٩ حتى ٦٤ يس
(٢) آيتي ١٦ ، ١٧ الحاقة
(٣) آية ٢٥ الفرقان
(٤) آيتي ٢٢ ، ٢٣ الفجر

ويستر وبناء على هذا التعريف فإن الغمام قد يكون هو ذاته جزءً من الحجب التي يحتجب بها الله عن خلقه يجعلها الله حاجزاً بينه وبين خلقه في أرض المحشر تتقدمه في النزول حتى لا تهلكهم سبحات وجهه فإن الله لا يراه إلا أهل جنته يقول عليه الصلاة والسلام عن ربه عز وجل (حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه) [١] .

والذي دعاني إلى التفكير في هذا الإحتمال ما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن ابن عمر رضي الله عنه في هذه الآية ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظللٍ من الغمام والملائكة** ﴾ قال : يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب [٢] .

خلاصة هذه الوقفة :-

إن الله تبارك وتعالى منزه عن أن يحده أو يحصره زمان أو مكان ومنزه عن الجهة والتحيز فمن الخطأ أن يقال بأن الله موجود بذاته في كل زمان ومكان ولكن الصحيح أنه سبحانه محيط بالزمان والمكان أي أنه خارج عن حدود الزمان والمكان وأنه جل شأنه فوق سمواته وفوق عرشه يحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء وهو سبحانه أكبر وأعظم وأعلى من كل شيء وهو بائن بذاته عن مخلوقاته لا يحل في أجسادهم ولا يتحد بهم ولا يخالطهم ولا يمتزج بهم بل هو القاهر فوق عباده ليس كمثله شيء ، وهو سبحانه موجود في كل مكان بصفاته وليس بذاته أي بسمعه وبصره وعلمه وقدرته ورحمته وقهره ونفوذه وملكه وسلطانه يقول تعالى ﴿ **ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء**

(١) رواه مسلم (٢) أنظر فتح القدير الجزء الأول ص٢١١

وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[1] ، **﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾**[2] ، **﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾**[3] ، **﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾**[4] ، قال رسول الله ﷺ (والله فوق العرش وهو يعلم ما أنتم عليه)[5] .

(١) آية ٤ الحديد
(٢) آية ٦١ يونس
(٣) آية ٥٩ الأنعام
(٤) آية ٤ الأنبياء
(٥) رواه أبو داود

الوقفـة الثانيـة

القول بأن جميع الأحداث المستقبلية للدنيا والآخرة مخلوقة في علم الله ومحتجبة عن خلق الله فإذا جاء وقتها أظهرها الله مع ضرب الأمثلة بالجنة والنار والساعة

الوقفة الثانية

القول بأن جميع الأحداث المستقبلية للدنيا والآخرة مخلوقة في علم الله ومحتجبة عن خلق الله فإذا جاء وقتها أظهرها الله مع ضرب الأمثلة بالجنة والنار والساعة

جاء هذا القول في صفحتي ٤٥ ، ٤٦ الفصل الثالث من كتاب فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (الأدلة المادية على وجود الله) سلسلة كتاب اليوم التي تصدرها أخبار اليوم - العدد ٢٩٦/ يوليو ١٩٨٩ م . ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [(١)] أن قوله تعالى (يقول له) دليل على أن الشيء موجود وأن الخطاب موجه من الله إلى هذا الشيء الموجود والمخلوق في علم الله فقط فإذا قال الله له (كن) ظهر أمام الناس وضرب أمثلة على ذلك بالجنة والنار وأحداث الساعة يُفهم منها أن الجنة والنار مخلوقتان في علم الله فقط لأن وقتهما لم يأتِ فإذا جاء وقتهما أظهرهما الله وهكذا الساعة بكل أحداثها مستشهداً بقوله تعالى ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾ [(٢)] وأيضاً يوم البعث أو يوم القيامة بكل تفاصيله وأحداثه وجميع الأحداث المستقبلية للدنيا والآخرة جميعها مخلوقة في علم الله فإذا جاء وقتها أظهرها الله .

أستسمح فضيلة الشيخ بأن لديَّ بعض الملاحظات على هذا التفسير أذكرها في النقاط التالية :-

أولاً :-

إن القول بأن الجنة والنار (وأخصهما بالذكر) موجودتان ومخلوقتان في علم

---

(١) آية ٨٢ يس (٢) آية ١ النحل

الله فقط فإذا جاء وقتهما أظهرهما الله ، هذا القول معناه أن الجنة والنار غير موجودتين وغير مخلوقتين على وجه الحقيقة الآن وهذا يتعارض مع النصوص القاطعة من الكتاب والسنة والدالة على أنهما مخلوقتان الآن قبل يوم القيامة وأن من عباد الله من شاهدهما على وجه الحقيقة .

يقول تعالى ﴿**ولقد رءاه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى**﴾ [١] ويقول تعالى ﴿ **وجيء يومئذٍ بجهنم** ﴾ [٢] أي أنها موجودة بالفعل يجاء بها حيث قيل أنها في الأرض السفلى ، وفي الحديث (يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها) [٣] ، وفي قوله تعالى ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [٤] ، قال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية الكريمة عن أرواح شهداء أحد (جعل الله أرواحهم في جوف طير خُضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلي قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش) [٥] وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم (خلق الله جنة عدنٍ بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال لها تكلمي قالت قد أفلح المؤمنون) [٦] ، وفي الحديث (أوقد الله على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهي سوداء مظلمة) [٧] ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة (كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، قال هذا حجر رُمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار حتى انتهى الآن إلى قعرها) .

وقول النبي ﷺ لجبريل عليه السلام (مالي لم أر ميكائيل ضاحكاً قط ؟ قال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار) [٨] وفي الحديث (إذا جاء رمضان فتحت

---

(١) آيات ١٣ . ١٤ . ١٥ النجم
(٢) آية ٢٣ الفجر
(٣) رواه مسلم
(٤) آية ١٦٩ آل عمران
(٥) رواه الشيخان
(٦) رواه الطبراني
(٧) رواه الترمذي
(٨) رواه أحمد

أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين) [١] ولقد أشير إلى ذلك في القرآن الكريم قال تعالي ﴿ **إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها** ﴾ [٢] ، ﴿ **إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا** ﴾ [٣] ﴿ **واتقوا النار التي أعدت للكافرين** ﴾ [٤] ﴿ **وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ [٥] ﴿ **أعد الله لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ [٦] .

جميع هذه الآيات والأحاديث تعطي الدلالة القاطعة على أن الجنة والنار موجودتان ومخلوقتان حقيقة وليس في علم الله فقط تماماً كسائر المخلوقات والعوالم التي خلقها الله ولكننا لا نراها كالسموات السبع والكرسي والعرش والجن والملائكة وعالم القلم وعالم اللوح المحفوظ .

أما الأحداث التي تطرأ علي الجنة والنار بعد قيام الساعة وأخبار وأحوال أهلهما من السعادة أو الشقاء منذ أن يدخلوها إلى أبد الآبدين فهذه أشياء ليست مخلوقة وليس لها وجود حقيقي الآن لأنها من الأشياء المستقبلية ولكنها معلومة لله فقط وما وعد الله به لابد أن يتحقق .

ثانياً :-

إن تفسير فضيلة الشيخ لقوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [٧] بأن هذا الشيء موجود ومخلوق في علم الله فقط فإذا قال الله تعالى له (كن) ظهر أمام الناس ، هذا التفسير ظاهره إبراز القدرة الإلهية ولكن إذا دققنا النظر فيه لوجدناه يحد من القدرة الإلهية إلى أقصى درجة وذلك لأن فضيلته جعل (كن) كشفية وليست تخليقية فقد يُفهم من ذلك أن الله عز وجل لا يخلق بكلمة (كن) وإنما فقط يكشف ويبرز ويُظهر المستور الذي خلقه وحجبه وأخفاه عن أعيان العباد .

---

(١) متفق عليه
(٢) آية ٢٩ الكهف
(٣) آية ١٠٢ الكهف
(٤) آية ١٣١ آل عمران
(٥) آية ١٣٣ آل عمران
(٦) آية ٨٩ التوبة
(٧) آية ٨٢ يس

بناء على تفسير فضيلته فإن الشيء قد يحتاج في خلقه إلى فترة طويلة من الزمن بما يتنافى مع القدرة الإلهية ولكنه بعد أن يُخلق يظل مستوراً عن أعين الناس ثم يظهر أمام أعينهم فجأة بكلمة (كن) فما هي القدرة والمعجزة هنا ؟ أهي قدرة على إظهار الشيء فقط في لمح البصر ؟ إن القدرة الحقيقية تكون في خلق هذا الشيء وإيجاده في لمح البصر ، ولنضرب مثلاً على ذلك بمعجزة تحويل عصا موسى إلى ثعبان ، لو طبقنا على هذه المعجزة تفسير فضيلته المبني على (كن) الكشفية فلربما اعتقد البعض أن الثعبان مخلوق قائم بذاته في علم الله يختلف عن العصا ، فإذا أراد الله أن يحول العصا إلي ثعبان أخفى العصا عن أعين الناس وأظهر الثعبان ، ثم عندما أراد إعادته إلى العصا أخفى الثعبان وأظهر العصا وبذلك تكون المعجزة مجرد خدعة كالسحرة الذين يخدعون ويسحرون أعين الناس .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهذا يختلف تماماً عن (كن) التخليقية التي تجسد قدرة الله تعالى على خلق الثعبان من العصا في لمح البصر ثم إعادة تخليق العصا من الثعبان في لمح البصر أيضاً وبذلك تتحقق طلاقة القدرة الإلهية في خلق الكائن الحي من الجماد وخلق الجماد من الكائن الحي وتحويل النسيج الخشبي إلى نسيج لحمي ودم وعظام وأعصاب وأجهزة داخلية أو مسخ الكائن الحي إلي مادة صماء خشب أو حجارة أو حديد أو غير ذلك ، يقول تعالى ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة** ﴾[1] .

إن المبرر الذي يستند إليه فضيلة الشيخ في إثبات صحة تفسيره هو «إذا كان الله يريد شيئاً غير موجود ولا مخلوق فكيف يخاطب هذا الشيء بقوله (يقول له) كما جاء في الآية الكريمة ؟ إن مخاطبة الله تعالى لهذا الشيء معناها أن هذا

(١) آيتي ٥٠ ، ٥١ الإسراء

الشيء موجود ومخلوق » ومادام هذا الشيء موجود ومخلوق (من وجهة نظر فضيلة الشيخ) فإن (كن) ليست للإيجاد ولا للتخليق ولكنها لإظهار هذا الشيء الموجود أمام أعين الناس بعد أن كان مخفياً عنهم .

لو طبقنا هذا الكلام على معجزة تحويل العصا إلى ثعبان فإن تفسير هذه الآية الكريمة من وجهة نظر فضيلة الشيخ هو « إنما أمره إذا أراد الثعبان أن يقول للثعبان كن فيظهر أمام أعين الناس » إن فضيلة الشيخ إعتبر أن العصا شيء والثعبان شيء آخر وأن الأمر الإلهي موجه إلى هذا الشيء الآخر الذي أراده الله وهو الثعبان ، والصحيح أن العصا والثعبان مادتان مختلفتان وصورتان مختلفتان لشيءٍ واحد لا يمكن أن يستقل أو ينفصل أحدهما عن الآخر فالعصا هي ذات الثعبان والثعبان هو ذات العصا وكل منهما يتم تخليقه من الآخر ولا يظهر في وجود الآخر فهما إذن شيء واحد والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون** ﴾ [1] والضمير (هي) يعود إلي العصا بينما الثعبان هو الذي كان يلقف ما يأفكون فهما إذن شيء واحد ، وأيضاً قوله تعالى ﴿ **فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين** ﴾ [2] أي أن العصا هي ذاتها الثعبان وليست شيئاً آخر والمعجزة كانت في تخليق مكونات هذا الشيء من مادة إلى مادة أخرى وتحويلها من صورة إلي صورة أخرى مع بقاء ذات الشيء كما هي ، فلو كان أمامنا عصا وثعبان في نفس الوقت لقلنا أنهما شيئان مستقلان عن بعضهما ولكن الذي أمامنا شيء واحد مرة يكون عصا ومرة ينقلب إلى ثعبان ثم يعود هو نفسه إلى عصا كما كان .

بناء على ذلك فإن المعنى الصحيح للآية الكريمة هو « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لهذا الشيء في صورته الأولى (كن) فيكون في صورته التي أرادها الله »

---

(١) آية ٤٥ الشعراء (٢) آية ١٠٧ الأعراف

، فإذا طبقنا ذلك على العصا والثعبان فيكون المعنى «إنما أمره إذا أراد ثعباناً أن يقول للعصا (كن) فتكون ثعباناً » .

وإذا كانت (كن) بناء على تفسير فضيلة الشيخ موجهه إلى الثعبان ليظهر فأين (كن) الموجهه إلى العصا لكي تصبح ثعباناً ؟ فليس في الآية غير (كن) واحدة .

إن إرادة الشيء في الآية الكريمة تعني إرادة إيجاده وتخليقه وليس كشفه وإظهاره .

والقرآن يفسر بعضه بعضاً فإذا أردنا أن نعرف هل الخطاب موجه إلى العصا أم إلي الثعبان فلنتأمل قوله تعالى ﴿ **قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ [1] فالله عز وجل قد وجه خطابه إلى النار قبل التحول وقال لها كوني فكانت برداً وسلاماً .

وكذلك قوله تعالى ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ [2] فالخطاب موجه إلى المعتدين في صورتهم البشرية وليس إلى القردة .

ومن العجيب أن نرى فضيلة الشيخ في مواضع أخرى من كتابه (معجزة القرآن) يقرر بأن الله خلق آدم من العدم بكلمة (كن) ، وخلق السموات والأرض بكلمة (كن) ، وخلق كل شيء بكلمة (كن) ، وهذا يعني أنه تارة يجعل (كن) كشفية وتارة يجعلها (تخليقية) .

ثالثاً:-

لا يخفى على فضيلة الشيخ أنه لم يرد عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة أن الأمور الغيبية المستقبلية من كائنات وأحداث تعد مخلوقة وموجودة

---

(١) آية ٦٩ الأنبياء . (٢) آية ٦٥ البقرة

في علم الله ولكنها محتجبة عن أعين العباد فإذا جاء وقتها أظهرها الله وإنما الوارد في القرآن والسنة أن الله هو عالم الغيب وأن جميع الأشياء والأحداث والأفعال معلومة بكامل أوصافها وتفاصيلها في علم الله الأزلي (ولا نقول مخلوقة وموجودة في علم الله) ثم دون الله مقادير هذه الأشياء والأحداث والأفعال قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وفقاً لما هو معلوم عنده في الأزل فإذا جاء وقتها خلقها الله فكانت مطابقة تماماً لما هومعلوم ومدون عند الله . وبذلك يتبين لنا أن خلق الشيء وإيجاده لا يبدأ إلا عندما يمارس هذا الشيء مهمته في الحياة أما قبل ذلك فإن هذا الشيء لا يعد مخلوقاً ولا موجوداً وإنما فقط يعد معلوماً ومقدراً بكامل أوصافه وتفاصيله ، يقول تعالى ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ [(١)] أي خلقناه بقدر سابق ، فالآية دليل على أن الخلق والإيجاد مرحلة متأخرة عن القدر بينما تفسير فضيلة الشيخ يفهم منه أن الأشياء لكونها مخلوقة وموجودة في علم الله فهي إذن تسبق مقاديرها المدونة أو على الأقل معها في آنٍ واحد ثم يظهرها الله فيما بعد بينما الصحيح أن مقادير الأشياء تسبق مرحلة الخلق والإيجاد ، يقول رسول الله ﷺ (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء) [(٢)] ، وفي رواية (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة) [(٣)] .

رابعـاً:-

ما دمنا نؤمن بأن الله هو خالق الخلق ومدبر أمرهم وأنه بيده الأمر كله فإن القول الإلهي (كن) يدور بين الخلق والأمر مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾ [(٤)] . من أجل ذلك فإنني أرى أن تأثير القول

---

(١) آية ٤٩ القمر (٢) رواه مسلم (٣) رواه مسلم (٤) آية ٥٤ الأعراف

الإلهي (كن) ليس في أنها كشفية وإنما هي على صورتين ، (كن) التخليقية التي يتحقق بها الخلق والإيجاد ، و(كن) الأمرية التي يتحقق بها إنفاذ أوامر الله في ملكه مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **قل إنما الأمر كله لله** ﴾ [١] ، ﴿ **يدبر الأمـر من السماء إلى الأرض**﴾ [٢] ، ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً**﴾ [٣] ، إذا طبقنا ذلك علي قوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [٤] فإنه إذا كان الأمر (كن) أمراً تخليقياً فإن الله يحول المادة من صورة معينة إلى صورة أخرى مختلفة عنها تماماً وحينئذٍ يكون معنى الآية هو (إنما أمره إذا أراد شيئاً في صورة معينة أن يقول لهذا الشيء في صورته الأولى (كن) فيتم خلقه في صورته الثانية التي أرادها الله) .

ومن الأمثلة على ذلك كما ذكرنا تحويل عصا موسى إلى ثعبان حي تم خلقه في الحال بكلمة (كن) ثم إعادة الثعبان إلى عصا كما كانت ، وأيضاً تحويل جوف الصخرة إلي ناقة حية من لحم ودم وعظام هي ناقة صالح عليه السلام خلقها الله في الحال بكلمة (كن) وأخرجها من جوف الصخرة ، وأيضاً مسخ الإنسان بأن يحوله الله إلى حجارة صماء أو إلى كائن حي آخر مثل الذين اعتدوا من بني إسرائيل يوم السبت فمسخهم الله وحولهم إلى قردة قال تعالى ﴿ **ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ [٥] ، وأيضاً تحدي الله لكفار قريش الذين استعظموا على قدرة الله أن يحييهم بعد أن صاروا عظاماً فقال الله لهم ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة** ﴾ [٦] أي أنكم لو كنتم حجارة أو حديداً ، أو غير ذلك لحولكم الله إلي عظام ثم بعثكم ، وقد عرض الله على نبيه محمد ﷺ أن يحول له بطحاء مكة ذهباً فقال لا يا ربي أجوع يوماً فأصبر وأشبع

---

(١) آية ١٥٤ آل عمران
(٢) آية ٥ السجدة
(٣) آية ٤٧ النساء
(٤) آية ٨٢ يس
(٥) آية ٦٥ البقرة
(٦) آيتي ٥٠ . ٥١ الإسراء

يوماً فأشكر ، وكثيرا مما يحدث في الجنة هو من قبيل الخلق الفوري بكلمة (كن) فإذا قطف الرجل من أهل الجنة ثمرة خلق الله مكانها إثنتين في الحال قال تعالى ﴿ **إن هذا لرزقنا ماله من نفاد** ﴾ [١] ، وكلما فض الرجل بكارة زوجته من الحور العين عادت بكراً كما كانت قال تعالى ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاءً ، فجعلناهن أبكاراً** ﴾ [٢] وكذلك النار قال تعالى ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ [٣] .

وعندما يقول تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [٤] ليس شرطاً أن يكون في التو واللحظة وإنما معناه أن يكون في الوقت الذي حدده وأراده الله وفق مشيئته وقدره فقد يكون التخليق بكلمة (كن) في التو واللحظة كسابق الأمثلة التي ذكرناها حتى يبين الله لعباده أنه على كل شيء قدير ، وقد يكون التخليق في وقت أطول من ذلك قليلاً مثلماعرض الله على نبيه عزير عليه السلام كيفية إعادة خلق وإحياء حماره بعد أن أصبح عظاماً قال تعالى ﴿ **وانظر إلي العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير** ﴾ [٥] ، ونحن أيضاً خلقنا الله بكلمة (كن) ليس في التو واللحظة وإنما في الوقت الذي أراده الله وفقاً للسنن الكونية التي خلقها فمثلاً إذا أراد الله أن يخلق طفلاً في بطن أمه قال له وهو في صورته كنطفة كن علقة فكانت بعد أربعين يوماً ، ثم قال للعلقة كوني مضغة فكانت بعد أربعين يوماً ، ثم قال للمضغة كوني عظاماً فكانت بعد أربعين يوماً ، ثم قال للعظام كوني طفلاً فكان في تمام تسعة أشهر من حمله في بطن أمه يقول تعالى ﴿ **ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [٦] ويقول عليه الصلاة والسلام (إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون

---

(١) آية ٥٤ ص
(٢) آيتي ٣٥ ، ٣٦ الواقعة
(٣) آية ٥٦ النساء
(٤) آية ٨٢ يس
(٥) آية ٢٥٩ البقرة
(٦) آية ١٤ المؤمنون

علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح) [1] .

هذا فيما يتعلق بـ (كن) التخليقية التي يتحقق بها الخلق والإيجاد .

أما (كن) الأمرية التي يتحقق بها إنفاذ أوامر الله في ملكه فإن أوامر الله تنفذ في الوقت الذي أراده الله وفقاً لمشيئته وقدره فإما أن تنفذ في التو واللحظة مثل إهلاكه للأمم السابقة التي كذبت رسله قال تعالى ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ [2] ، وإماتته بالصاعقة لمن جعل رؤيته لله جهرة شرطاً للإيمان بموسى ثم إحياؤه لهم يقول تعالى ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون** ﴾ [3] ، وإماتته ثم إحياؤه للألوف الذين خرجوا من ديارهم هرباً من الموت يقول تعالى ﴿ **ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم** ﴾ [4] ، وجميع المعجزات المادية التي أجراها الله على يد أنبيائه ومنهم إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتحققت في الحال تمت جميعها بكلمة (كن) الأمرية . ولنأخذ مثالين على ذلك تحويله سبحانه للنار الحارقة إلى نار باردة لا تؤذي نبيه إبراهيم عليه السلام ، وتحويله البحر بمائه السائل الجاري إلى ماء ساكن متماسك يعتلي بعضه فوق بعض فيصير البحر كأنه جبلان عظيمان بينهما طريق يعبره موسى ومن معه ، إذا نظرنا إلى قوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [5] فإن معنى الآية في هذه الحالة (إنما أمره إذا أراد تحويل شيء من صفة إلى صفة أخرى أن يقول لهذا الشيء في صفته الأولى «كن» فيتحول إلى الصفة الثانية التي أرادها الله) .

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) آية ٢٩ يس
(٣) آيتي ٥٥ ، ٥٦ البقرة
(٤) آية ٢٤٣ البقرة
(٥) آية ٨٢ يس

ومن أمثلة (كن) الأمرية التي يتحقق بها إنفاذ أوامر الله في ملكه في التو واللحظة الأمر الإلهي بقيام الساعة وما يصحب ذلك من الدمار الشامل والموت لمن كان حياً في السموات والأرض إلا من شاء الله وكذلك الأمر الإلهي بالبعث والنشور يقول تعالى ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ [1] ، ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [2] ، ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** ﴾ [3] .

وهناك أوامر لله تنفذ بـ (كن) في الوقت الذي حدده الله وفقاً للسنن الكونية التي خلقها الله ومن الأمثلة على ذلك أن يسخر الله الأسباب فيعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويغني فقيراً ويفقر غنياً ويمرض صحيحاً ويشفي مريضاً ويحرك الرياح ويسير السحاب وينزل الأمطار ويجري الأنهار ويأذن للنار فتحرق وللزرع فينبت وللشمس فتشرق .

وحتى القوانين والنواميس العلمية أو السنن الكونية التي خلقها الله بعض الناس يعتقد أن الكون والكائنات يخضعون لها بصورة تلقائية ولكن في حقيقة الأمر أنها مرهونة بمشيئة الله ففي كل مرة يأتي القانون لكي يمارس تخصصه فلا يمارسه إلا بإذن الله فالشمس لا تشرق في كل يوم إلا بإذن الله والنار لا تحرق في كل مرة إلا بإذن الله والدواء لا يشفي إلا بإذن الله .

إن اللـه هو الفاعل الحقيقي يقول تعالى ﴿ **أفرءيتم ما تحرثون ، ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون** ﴾ [4] ، ولقد ذم رسول الله ﷺ من قال أمطرنا بنوء كذا ووصفه بأنه كافر بالله مؤمن بالنجوم ومدح من قال أمطرنا بفضل الله وبرحمته ووصفه بأنه مؤمن بالله ، والله يمسك السماء لكي لا تقع على الأرض ، والطير

---

(١) آية ٥٣ يس (٢) آية ٦٨ الزمر (٣) آية ٧٧ النحل (٤) آيتي ٦٣ ، ٦٤ الواقعة

ما يمسكهن إلا الله رغم ما نعلمه من نظرية الطيران للطائر ، وحتى ملك الموت لولا أن الله يعينه ما استطاع أن يقبض روح بعوضة واحدة كما ورد ذلك عن ملك الموت نفسه يقول تعالى ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ [1] .

إن الكون ومن فيه مرتكن إلى خالقه في كل لحظة يستمد منه مقومات وجوده وحياته وقدرته فهو سبحانه قيوم السموات والأرض وما ذاك إلا لأنه سبحانه لا ينسى ولا يغفل لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يمسه من لغوب وإلا هلك الكون جميعاً بمن فيه ولن يتم ذلك إلا بإرادة الله ومشيئته يقول تعالى ﴿ **يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن** ﴾ [2] قال ابن عباس في معني هذه الآية (إن الله خلق لوحاً محفوظاً من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء ، قلمه نور ، وكتابه نور ، وعرضه ما بين السماء والأرض ، ينظر فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، يخلق في كل نظرة ، ويحي ويميت ، ويعز ويذل ، ويفعل ما يشاء) [3] ، وقال النبي ﷺ (من شأنه أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين) [4] ، فمن الخطأ الإعتقاد بأن الله خلق الكون ثم تركه وشأنه يدير أمره بنفسه وفقاً للنواميس التي أوجدها فيه دون الإعتماد على خالقه .

إذا كان الأمر كله بيد الله صغيره وكبيره وجليله وحقيره وأوله وآخره وفي كل طرفة عين فلماذا خلق الله النواميس العلمية والسنن الكونية المقننة وأخضع لها الكائنات والجمادات ؟ إن الله أوجدها وخلقها لسببين :-

السبب الأول ليمتحن عقيدتنا هل الفاعل الحقيقي الله أم هي ؟ والسبب الثاني ليميز بين المجتهد والكسول فمن سعى بجد ونشاط آخذاً بالأسباب ولم يعتقد بأن الله هو المسبب فهو الكافر ، ومن اعتقد أن الله هو المسبب ولم يأخذ بالأسباب فهو الكسول المتواكل ، أما المؤمن الحقيقي فهو الوسط بينهما الذي

---

(١) آية ٤٢ الزمر (٢) آية ٢٩ الرحمن (٣) اخرجه ابن جرير (٤) اخرجه ابن جرير

يعمل بجد ونشاط آخذاً بالأسباب وهو موقن بأن الله هو الفاعل والمسبب .

والأمر الإلهي (كن) إما أن يوجه إلي المخلوق ليصيبه ، وإما أن يوجه إلى المخلوق لينفذ مضمونه . فإذا وجه إلى المخلوق ليصيبه فلن يستطيع هذا المخلوق رده ولا الهرب منه فلابد أن ينفذ أمر الله فيه خيراً كان أم شراً ، أما إذا وجه إلى المخلوق لينفذ مضمونه فإنه سيكون مقهوراً بأن ينفذ ما أمره الله به إما طوعاً بما خلق الله فيه من القدرة على ذلك أو كرهاً إن أبى يقول تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين** ﴾ [1] ، ﴿ **وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتهم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء** ﴾ [2] ، ﴿ **يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم** ﴾ [3] ، ﴿ **يا جبال أوبي معه والطير** ﴾ [4] ، ﴿ **يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي** ﴾ [5] ... المهم أن أمر الله نافذ لا محالة يقول تعالى ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ [6] ويقول ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ [7] .

---

(١) آية ١١ فصلت
(٢) آية ٢١ فصلت
(٣) آية ٦٩ الانبياء
(٤) آية ١٠ سبأ
(٥) آية ٤٤ هود
(٦) آية ٤٧ النساء
(٧) آية ٣٨ الاحزاب

الوقفـة الثالثة

القول بأن الله عز وجل خلق كل شيء من العدم بكلمة (كن)

الوقفة الثالثة

القول بأن الله عز وجل خلق كل شيء من العدم بكلمة (كن)

١ - ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه معجزة القرآن الجزء الثالث - الفصل الثالث بعنوان (طلاقة القدرة في الكون) صفحة ٣٢١ ما نصه :-

[الله سبحانه وتعالى خلق ما في الأرض جميعاً وخلق لها الأسباب التي تتفاعل بها والقوانين التي تحكمها ، والله سبحانه وتعالى حين قال (كن) تم الخلق في نفس اللحظة ولكن الأسباب تفاعلت في السموات والأرض في ستة أيام] .

٢ - وفي صفحة ٣٢٨ قال فضيلة الشيخ ما نصه : [وخَلْق السموات والأرض وما فيهما كان بكلمة (كن) ، وخَلْق الإنسان كان بكلمة (كن)] .

٣ - وفي صفحة ٥٥ من الكتاب الثالث من سلسلة معجزة القرآن بعنوان مشاهد يوم القيامة قال فضيلته ما نصه :- [خَلْق البشر بدأ بآدم عليه السلام وكان خلقاً أو إيجاداً من عدم أي لم يكن آدم موجوداً ووجد بكلمة (كن) من الله سبحانه وتعالى] .

أستسمح فضيلة الشيخ في عرض ملاحظاتي على هذه المقولات الثلاثة :-

إذا كان الخلق قد تم في نفس اللحظة بكلمة (كن) كم ذكر فضيلته في المقولة الأولى فما فائدة تفاعل الأسباب في السموات والأرض في ستة أيام ؟

أما إذا كان مراد فضيلة الشيخ أن الله خلق الأسباب بكلمة (كن) في نفس اللحظة ثم ترك الأسباب بعد ذلك تتفاعل في السموات والأرض حتى تم خلقها واكتمل في ستة أيام فمعنى ذلك أن فضيلته (دون قصد منه بالطبع) جعل

الأسباب هي الخالقة ونسب إلى الله أنه خلق الخلق ثم تركه وشأنه يدبر أمره بنفسه دون الإعتماد على خالقه .

عليه أود أن أعرض الرأي الذي أراه متفقاً مع النصوص الشرعية من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة :-

أستهل حديثي بقول النبي ﷺ (كان الله قبل كل شيء) [1] وقوله (كان الله ولم يكن شيء غيره)[2] وقوله تعالى ﴿ **هو الأول** ﴾ [3] فما عداه خُلق واستحدث من العدم وقوله تعالى ﴿ **كما بدأنا أول خلقٍ نعيده** ﴾ [4] فجميع المخلوقات لها بداية وقبل ذلك كانت عدماً ، وقوله تعالى ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ [5] أي أنه كان عدماً حتى التراب الذي خُلق منه لم يكن له وجود ، ومثله قوله تعالى ﴿ **أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يكُ شيئاً** ﴾ [6] فان كانت الآية التي قبلها ذكرت بأن الإنسان لم يكن شيئاً مذكوراً فإن هذه الآية ذكرت بأنه لم يكن شيئاً إطلاقاً أي كان عدماً محضاً ، ومثلها تماماً في المعنى قوله تعالى لزكريا عليه السلام ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئاً** ﴾ [7] فقد خاطبه الله بذلك مباشرة دون ذكر آدم عليه السلام للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم فما ينطبق على آدم ينطبق على ذريته وذلك مثل قوله تعالى ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ [8] فقد خاطبنا الله بذلك دون ذكر آدم عليه السلام للدلالة على أن ما ينطبق على الأصل ينطبق على الفرع لأن الفرع مستمد من الأصل ومأخوذ منه .

جاء في تفسير فتح القدير للشوكاني للآية الكريمة ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تكُ شيئاً** ﴾ [9] ما نصه : [والمعنى أن الله سبحانه خلقه إبتداء وأوجده من العدم

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) رواه البخاري
(٣) آية ٣ الحديد
(٤) آية ١٠٤ الأنبياء
(٥) آية ١ الإنسان
(٦) آية ٦٧ مريم
(٧) آية ٩ مريم
(٨) آية ٢٠ الروم
(٩) آية ٩ الروم

المحض فإيجاد الولد له بطريق التوالد المعتاد (حتى ولو بَلَغَهُ الكبر وامرأته عاقر) أهون من ذلك وأسهل منه ، وإنما لم ينسب ذلك إلى آدم عليه السلام لكونه المخلوق من العدم حقيقة بأن يقول : « وقد خلقت أباك آدم من قبل ولم يك شيئا » للدلالة على أن كل فرد من أفراد البشر له حظ من إنشاء آدم من العدم] .

مما سبق يتبين لنا أن السموات والأرض وجميع المخلوقات خلقها الله وأوجدها من العدم .

ولقد دلت النصوص القرآنية الكريمة على أن المرحلة الأولي لبداية الخلق وهي تعامل الله عز وجل مع العدم تمت بالخلق المباشر لكونها على غير مثال سابق ، فقد أوجد الله من العدم الذي هو لا شيء أوجد أشياء أبرزها إلى حيز الوجود تمثل المواد البنائية الأولية لكل مخلوق ، ووضع بها البصمة الإلهية التي تجعلها تدين للخالق بالولاء والإنقياد ، كما وضع فيها نوعاً من الإدراك لتتمكن من التلقي عن الخالق إذا أمرها أن تنصاع إليه وتأتمر بأمره ، ثم بعد ذلك قال لهذه الأشياء (كن) فكانت وفق مراد الله .

ولعلنا نستدل على ذلك من قوله تعالى ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾[1] ، وقوله تعالى ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ [2] .

إذن فالذي يقول الله له (كن) ليس العدم ولكنه شيء له وجود فعلي ، ليس في صورته النهائية المكتملة كما يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره للآية السابقة ولكن في صورته الأولى أو في مادته الأولية ، ولعلنا نستدل أيضاً على صحة ذلك من قوله تعالى ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [3] فالآية قد دلت على أن هناك مرحلة تسبق

(١) آية ٤٠ النحل (٢) آية ٨٢ يس (٣) آية ٥٩ آل عمران

مـرحلة الأمـر بـ (كن) وهذه تتم بالخلق المباشـر ، فإذا تحدثنا عن الإنسـان نجد أن الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خلقه الله من العدم على غير مثال سابق ولذلك خلقـه بيـده ، أمـا نحن بنو آدم فـإن الله لـم يخلقنا بيـده من العـدم وإنما خلقنـا من سلالة من ماء مهين وهي النطفة التي هي سلالة من طينة أبينا آدم عليه السلام ، خلقنا بـ (كن) أطواراً في أرحام أمهاتنا ، يقول تعالى ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين** ﴾ [1] والدليل على أن الله خلق الإنسان الأول بيده وليس بـ (كن) قوله تعالى لإبليس ﴿ **يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديَّ ، أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ [2] .

وبديهي أن الله لم يخلق إبليس بيده لأنه لم يكن أول الجن وإنما هو من الجن ، وهذا لا يمنع أن له ذرية من الجن الفاسق وهم الشياطين المردة ، يقول تعالى ﴿ **إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ [3] إذاً فالخلق المباشر ميزة تميز بها آدم عن إبليس كما ألمحت بذلك الآية الكريمة .

وأيضاً خلق السموات والأرض من العدم على غير مثال سابق لم يتم بـ (كن) وإنما خلقهما الله بيده يقول تعالى ﴿ **والسماء بنيناها بأييدٍ وإنا لموسعون ، والأرض فرشناها فنعم الماهدون ، ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ [4] .

والتحدث عن خلق السماء باليد ينصرف أيضاً على الآيتين اللتين بعدها ولكنها ذكرت في الآية الأولى فقط منعاً للتكرار فالأرض أيضاً خلقت باليد يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين** ﴾ [5] ثم قوله تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين** ﴾ [6] . فخلق الأرض مثل خلق السماء كلاهما تم باليد خلقاً

---

(١) آيتي ٧ ، ٨ السجدة
(٢) آية ٧٥ ص
(٣) آية ٥٠ الكهف
(٤) آيات ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ الذاريات
(٥) آية ٩ فصلت
(٦) آيتي ١١ ، ١٢ فصلت

مباشراً من العدم وأيضاً خلق زوجين من كل شيء من المخلوقات تم بالخلق المباشر من العدم على غير مثال سابق وهكذا أصل كل شيء من مخلوقات الله خلقه الله خلقاً مباشراً من العدم وخلق له زوجه ثم جاءت ذريتهما كسلالة من هذا الأصل بموجب الأمر الإلهي (كن) تماماً كما خلق حواء من الضلع الأيسر لآدم ثم جاءت ذريتهما كسلالة من آدم قال تعالى ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً** ﴾ (١) ، وقال ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلنكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ (٢) .

جاء في كتاب عقيدة المؤمن للشيخ أبي بكر الجزائري ص ١٩ ما نصه : (بيد أن خلق آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلق المباشر) ، وفي ص ٣٧١ ما نصه : (إن خلق الله تعالى لآدم بيديه هو خلق مباشر وحقيقة لا ينبغي إنكارها) .

وأيضاً أصل الأنعام خلقه الله خلقاً مباشراً من العدم وخلق له زوجه ومنهما جاءت الأنعام الأخرى كسلالة من هذا الأصل بموجب الأمر الإلهي (كن) ، يقول تعالى ﴿ **أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون** ﴾ (٣) وهكذا جميع مخلوقات الله من طيور وحيوانات ونباتات .

جاء في كتاب الأدلة المادية على وجود الله للشيخ محمد متولي الشعراوي ما يؤكد ذلك حيث ورد في ص ١٢ هذا النص : (من الذي أوجد الشجرة الأولي من عدم والتفاحة الأولى والبرتقالة الأولى والتمرة الأولى وحبة القمح الأولى وشجرة القطن الأولى ؟ نجد أنها وغيرها من كل ما تنتجه الأرض كلها من خلق الله خلقاً مباشراً ثم بعد ذلك إستمر وجودها بالأسباب التي خلقها الله في الكون فالثمرة الأولى مخلوقة خلقاً مباشراً من الله) .

وأيضاً الجنة خلقها الله على غير مثال سابق قال عليه الصلاة والسلام (خلق

---

(١) آية ١ النساء (٢) آية ١٣ الحجرات (٣) آية ٧١ يس

الله جنة عدن بيده ودلى فيها ثمارها وشق فيها أنهارها ثم نظر إليها فقال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون فقال وعزتي وجلالي لا يجاورني فيكِ بخيل)[١] ، وسأل موسى ربه عن أعلى أهل الجنة منزلة في الجنة فقال (أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيديَّ وختمت عليها فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر)[٢] .

والنور الذي هو المادة الأولية البدائية التي خلقت منها الملائكة خلقه الله من العدم خلقاً مباشراً ثم خلق الله من هذا النور الملائكة بكلمة (كن) لأن الملائكة لا يتناسلون أي ليس لهم ذرية ، ولا ينتمون إلى أبٍ واحد أو أصلٍ واحد يتفرعون منه كذرية له ، ولا تربطهم بالتالي قرابة ولا يصنفون إلي ذكورة وانوثة بل خلقهم الله فرادى لعبادته وطاعته فيما أمر ، ولكونهم ليسوا ذرية لأصل واحد فإنهم يتفاضلون فيما بينهم في الخلقة فبعضهم أكبر وأعظم وأقوى من البعض الآخر ومنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ومنهم من له أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك فقد ورد أن جبريل عليه السلام وهو أفضل الملائكة له ستمائة جناح ، يقول تعالى ﴿ **جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير** ﴾[٣] .

وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام في صورته له ستمائة جناح كل جناح منها سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم .

والدليل على أن الله عز وجل خلق الملائكة من النور بكلمة (كن) ما أخرجه الطبراني عن ابن عمرو عن النبي ﷺ أن الملائكة قالت يا رب أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك ولا نأكل

(١) رواه الطبراني (٢) رواه مسلم (٣) آية ١ فاطر

ولا نشرب ولا نلهو فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة قال « لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيديَّ كمن قلت له كن فكان » والحديث أخرجه أيضاً عبد الرزاق وابن جرير .

ومما يؤكد هذا المعنى أيضاً قوله تعالى ﴿ **وأوحى في كل سماء أمرها** ﴾ [1] فإن خلق الملائكة كان ضمن ما أوحى الله به في كل سماء ، والوحي هنا بمعنى الأمر أي بالأمر الإلهي (كن) .

إذن فالشيء الذي يقول الله له (كن) ليس عدماً وإنما هو شيء له وجود فعلي ليس في صورته النهائية ولكن في صورته الأولى أو مادته الأولية التي يريد الله أن تتحول إلى تلك الصورة النهائية أوجد الله هذا الشيء البدائي وخلقه من العدم وخلق له إدراكاً ليتلقى عن الخالق حتى إذا أمره بـ (كن) إنصاع إلي أمره فكان وفقاً لما أراده الله منه .

بعض الناس يستكثرون مدة خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ويقللون من شأن هذا الإنجاز الإلهي العظيم ويقولون بأن الله خلقهن في ستة أيام ليعلمنا الصبر والتأني ، ولنسأل أنفسنا هل ذكر الله ذلك في القرآن الكريم مراتٍ عديدة ليعلمنا الصبر والتأني أم ليبرهن لنا عظيم قدرته ؟ وذلك مثل قوله تعالى ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين** ﴾ [2] ، ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ [3] .

إن هذه الأيام الستة قليلة جداً مقارنة بالإنجاز الإلهي الذي تم فيها للأسباب التالية :-

١ - إن هذا الكون خلقه الله من العدم فقد كان الله ولم يكن معه أحد ولذلك

---

(١) آية ١٢ فصلت (٢) آية ٩ فصلت (٣) آية ٣٨ ق

فهو سبحانه الأول وكل ما عداه مستحدث فالتراب الذي خلق منه الإنسان لم يكن له وجود ، والدخان الذي خلقت منه السماء ، والنار التي خلق منها الجان ، والنور الذي خلقت منه الملائكة ، وغير ذلك من المواد الأولية البنائية الأولى ، كلها لم يكن لها وجود بل كانت عدماً فأوجد الله من العدم الذي هو لا شيء مواداً وأشياء أبرزها إلى حيز الوجود ووضع بها البصمة الإلهية التي تجعلها تدين للخالق بالولاء والإنقياد ، ووضع فيها نوعاً من الإدراك لتتمكن من التلقي عن الخالق إذا أمرها بشيء إنصاعت إليه وانقادت لأمره .

٢ - خلق الله بيده من هذه المواد الأولية المراحل الأولى من خلق الأصل الأول لكل مخلوق من المخلوقات ثم قال له (كن) فاكتمل خلقه ، يقول تعالى عن آدم ﴿ **كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ [١] ولا نقصد من الخلق باليد تشبيه الخالق بالمخلوق فالله ليس كمثله شيء ولكننا نقصد أنه خلق مباشر يتوفر فيه التصوير والإبداع على غير مثال سابق ويتم بعملية تخليقية تتجلى فيها القدرات الإبداعية لله وليس عن طريق أو بمجرد الأمر الإلهي (كن) .

ثم خلق الله لهذا الأصل زوجه وأمدهما بالقدرة على التناسل بحيث يخرجمنهما عدد لا حصر له من الذرية ، يقول تعالى ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً** ﴾ [٢] ويقول تعالى ﴿ **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾ [٣] فنطفة آدم على سبيل المثال تحمل بعضاً من مادة طينته التي خُلق منها وما من أحدٍ من بني آدم إلا وتحمل نطفته بعضاً من طينة آدم عليه السلام يقول تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين** ﴾ [٤] ، ويقول ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعله نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ [٥] ، والماء المهين

---

(١) آية ٥٩ آل عمران
(٢) آية ١ النساء
(٣) آية ٤٩ الذاريات
(٤) آيتي ١٢ ، ١٣ المؤمنون
(٥) آيتي ٧ ، ٨ السجدة

هو النطفة المحملة بجزء من هذا الطين .

إن الله قد مهد في هذه الأيام الستة ووضع الأساس واللبنة الأولى لمجيء هذا الكم الهائل من بلايين الإنس والجن والدواب والطيور والنباتات الذي نراه اليوم ، فمراحل الخلق الأولى للمخلوق الأول من كل نوع من أنواع الكائنات تمت بالخلق المباشر ثم أتم الله خلق هذا المخلوق الأول وأوجد ذريته من بعده بكلمة (كن) وصار كل شيء بعد ذلك يتم بكلمة (كن) أي بالنداء والأمر الإلهي والإرادة والمشيئة الإلهية (فيكون) ما أراده الله وما أمر به في الوقت الذي حدده الله طال ذلك أم قصر .

إن الله عز وجل في هذه الأيام الستة مدة خلق السموات والأرض وما بينهما قد مهد بأن تسير الأمور بعد ذلك بـ (كن) فجميع ما يحدث في هذا الكون بعد هذه الأيام الستة لا يتطلب من الله سوى صدور الأمر الإلهي (كن) فيكون في الوقت الذي حدده الله والفضل في ذلك لله الذي خلق الركيزة والأساس بيده خلقاً مباشراً في هذه الأيام الستة ، يقول تعالى لبني آدم ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفسٍ واحدة** ﴾ [1] أي أن خلق الناس جميعاً وبعثهم جميعاً بالنسبة لقدرة الله تعالى مثل خلق نفسٍ واحدةٍ وبعثها فليست الثانية بأهون من الأولى والسبب في ذلك أن الخلق والبعث سواء لجميع الناس أو لأحدهم يتحقق بالأمر الإلهي (كن) .

نخلص من ذلك أننا لو قارنا بين شيئين كلاهما تم بالأمر الإلهي (كن) فحتماً سيكون أحد الشيئين هين مثل الآخر تماماً وليس أهون منه .

أما إذا كان أحد الشيئين تم بالخلق المباشر والآخر تم بالأمر الإلهي (كن) فقطعاً سيكون أحد الشيئين أهون من الآخر ، فبداية الخلق من عدم تم بالخلق المباشر أما إعادته فقد تم بالأمر الإلهي (كن) ولذلك كان إعادة الخلق أهون من بدايته وكلاهما هين ولكن الإعادة أهون من البداية وذلك لأن الإعادة تمت من

---

(١) آية ٢٨ لقمان

شيء مخلوق وهو التراب بالنسبة للإنسان أما البداية فكانت من العدم يقول تعالى ﴿ **وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ [1] قال ابن عباس (يعني أيسر عليه) ، وقال مجاهد (الإعادة أهون عليه من البداءة والبداءة عليه هينة) ومصداق ذلك الحديث القدسي الذي رواه البخاري قال رسول الله ﷺ (يقول الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته ...) ، ولقد ذكر الله عز وجل سؤال الكافر المنكر للبعث يقول تعالى ﴿ **قال من يحي العظام وهي رميم** ﴾ [2] ثم أجاب الله على هذا السؤال بقوله ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلقٍ عليم** ﴾ [3] فالذي أنشأ العظام أول مرة من العدم قبل أن تكون تراباً قادر على أن يعيدها من التراب وهذا بلاشك أهون عليه وكلاهما هين .

٣ - بسبب ما أودعه الله في كل ذرة من ذرات هذا الوجود من الولاء للخالق والإدراك خلال هذه الأيام الستة فإنه صار بإمكانها التلقي عن الخالق وتلبية أمره ولم يعد الأمر الإلهي (كن) قاصراً على خلق الإنسان من مادته وهي التراب أو النطفة أو إحيائه بعد أن يصبح تراباً وعظاماً ، بل إن هذا الأمر الإلهي قادر على تحويل عنصر إلي عنصر آخر كالتراب إلى ذهب أو الحجارة إلى عظام أو غير ذلك لأن جميع الذرات في هذا الوجود تأتمر بأمره ، يقول تعالى ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة** ﴾ [4] . ولقد أثبت الله لقوم ثمود صحة ذلك بأن أخرج لهم من الصخرة ناقة أي أنه قام بتحويل مادة الحجارة الصماء إلى نسيج لحمي حي ، كما أثبت لقوم فرعون صحة ذلك بأن قلب العصا إلى ثعبان ثم أعاد الثعبان إلى العصا ، أي أنه قام بتحويل النسيج الخشبي إلي نسيج لحمي حي ثم

(١) آية ٢٧ الروم (٢) آية ٧٨ يس (٣) آية ٧٩ يس (٤)آيتي ٥٠ ، ٥١ الإسراء

أعاده إلى نسيج خشبي مرة أخرى ... كل ذلك بكلمة (كن) .

والجنة خلقها الله بيده فأنطقها فتكلمت ثم بعد ذلك جميع ما سيحدث في الجنة من الأعاجيب يتم بكلمة (كن) كأن يشتهي الرجل من أهل الجنة الثمرة فيتدلى فرع الشجرة ليكون في متناول يده سواء كان واقفاً أو قاعداً أو راقداً يقول تعالى ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ [1] ، ﴿ **وذللت قطوفها تذليلا** ﴾ [2] فإذا قطفت الثمرة أوجد الله مكانها ثمرتين في الحال ، ويشتهي الطائر في سماء الجنة فيسقط بين يديه مشوياً فإذا فرغ من أكله عاد حياً وطار من جديد ففي رواية للبيهقي قال رسول الله ﷺ (إن المؤمن ينظر إلى الطير في الجنة فيشتهيه فيقع بين يديه مشوياً) ، يقول تعالى ﴿ **إن هذا لرزقنا ماله من نفاد** ﴾ [3] ، ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ [4] .

٤ - بسبب ما أودعه الله في كل ذرة من ذرات هذا الوجود من الإدراك والولاء للخالق خلال هذه الأيام الستة فإنه أصبح بإمكان الجمادات أن تسبح بحمد الله يقول تعالى ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ [5] ، ﴿ **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** ﴾ [6] .

ولقد سمع النبي ﷺ وأبو بكر وعمر تسبيح الحصى بين أيديهم ... وكان بمكة حجر يلقي السلام على رسول الله ﷺ كلما مر عليه ... وسمع رسول الله ﷺ صوت أنين وبكاء الجذع عندما تركه واستبدله بمنبر يخطب عليه فضمه إلى صدره الشريف فسكن ، وأخبرته الشاه أنها مسمومة ، واذا مات المؤمن بكى عليه موضع في السماء كان يصعد منه دعاؤه وعمله الصالح وموضع في الأرض هو موضع

---

(١) آية ٢٣ الحاقة
(٢) آية ١٤ الإنسان
(٣) آية ٥٤ ص
(٤) آية ٣٥ ق
(٥) آية ٤٤ الإسراء
(٦) آية ١٣ الرعد

سجوده ، أما الكافر فلا يبكيان عليه يقول تعالى عن فرعون وقومه ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾ [١] .

ونطق الجمادات بين يديّ الله دليل على الإدراك والولاء لله يقول تعالى ﴿ **وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتهم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة** ﴾ [٢] ، ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين** ﴾ [٣] ، ﴿ **يومئذٍ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها** ﴾ [٤] أوحى الله للأرض أن تتكلم فتحدثت عما ارتكبه بنو آدم فوق ظهرها من المعاصي وما قدموه من الطاعات .

٥ - إذا أخذنا في الإعتبار سعة السموات والأرض وما بينهما التي خلقها الله في هذه الأيام الستة فإنه يضاف إلى ذلك أنه خلقها بإتقان ودقة متناهية يقول تعالى ﴿ **ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت** ﴾ [٥] ، ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾ [٦] ، ﴿ **صُنْعَ الله الذي أتقن كل شيء** ﴾ [٧] فابتداء بهذه الكائنات الدقيقة التي لا ترى إلا بالميكرسكوب وقد خلق الله لها أجهزة للسمع والبصر والإحساس والتنفس والهضم والإخراج والتناسل .. ومروراً بالإنسان وما فيه من الإعجاز يقول تعالى ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ [٨] وانتهاء بالكواكب والنجوم والمجرات التي تسبح في أفلاكها بنظام ثابت لا يتغير في هذا الفضاء الشاسع الذي يتمدد ويتسع أكثر وأكثر يقول تعالى ﴿ **كلٌ في فلكٍ يسبحون** ﴾ [٩] ، ﴿ **والسماء بنيناها بأييدٍ وإنا لموسعون** ﴾ [١٠] ، ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ [١١] .

من أجل ذلك كانت السموات والأرض أشد إعجازاً في خلقها من خلق الإنسان

---

(١) آية ٢٩ الدخان
(٢) آية ٢١ فصلت
(٣) آية ١١ فصلت
(٤) آيتي ٤ ، ٥ الزلزلة
(٥) آية ٣ الملك
(٦) آية ٧ السجدة
(٧) آية ٨٨ النمل
(٨) آية ٢١ الذاريات
(٩) آية ٣٣ الأنبياء
(١٠) آية ٤٧ الذاريات
(١١) آيتي ٧٥ ، ٧٦ الواقعة

والكائنات يقول تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ [1] .

أضف إلى ذلك العالم الغيبي الذي لا نراه حيث خلقه الله في هذه الأيام الستة ومنه خَلْق الجن والملائكة وما في الكون من أسرار غيبية ... يقول تعالى ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون ، وما لا تبصرون ، إنه لقول رسول كريم** ﴾ [2] .

٦ - والله عز وجل في هذه الأيام الستة لم يخلق الماديات والمحسوسات فقط وإنما خلق المعنويات أيضاً ، خلق الظلمات والنور ، وخلق الخير والشر ، وخلق السعادة والشقاء ، وخلق الموت والحياة يقول تعالى ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾ [3] .

والله لم يخلق الأجساد فحسب بل خلق النفوس والأرواح أيضاً يقول تعالى ﴿ **ونفسٍ وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ [4] .

وكما أنه سبحانه قادر على أن يخلق المحسوسات والموجودات من العدم فهو أيضاً قادر على أن يجسد المعنويات فقد ورد في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أن الله عز وجل يجسد الموت على صورة كبش أملح يُذبح على الصراط بين الجنة والنار ثم ينادي منادي من الملائكة يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت ، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت .

وبرغم أن فترة الستة أيام التي خلق الله فيها السموات والأرض تعد قصيرة جداً بالنسبة لما تم إنجازه وليس أدل على ذلك من تسجيل الله لهذا الحدث في كتابه الكريم لبيان عظيم قدرته وإظهار الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله ، برغم ذلك فإننا لا نشك في قدرة الله على أن يخلق ذلك كله في أقل من ذلك بكثير حتى ولو كان في قدر الزمن الذي يستغرقه الأمر الإلهي (كن) فيكون في التو واللحظة لأن الله الذي خلق الأشياء من العدم قادر بلاشك على ذلك ولكننا

(١) آية ٥٧ غافر (٢) آيات ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ الحاقة (٣) آية ٢ الملك (٤) آيتي ٧ ، ٨ الشمس

فقط نقول بأن هذا إن تم فإنه سيتم عن طريق الخلق المباشر من الله تعالى في التو واللحظة وليس بـ (كن) لأن العدم ليس شيئاً يؤمر أو يخاطب وليس به إدراك ولا ولاء للخالق لأنه لم يخلق بعد فكيف يأتمر بالأمر الإلهي كن فيكون ؟ إلا إذا تم ذلك عن طريق القهر والغلبة بأن تقوم (كن) الإلهية بقهر العدم وإخراجه إلى حيز الوجود أي بتحويله إلي شيء محسوس أرض وسموات ولو تم ذلك فلن يكون خلق السموات والأرض متقناً كخلق الله لهما خلقاً مباشراً بيده لأن الخلق المباشر أكثر رقياً وتطوراً من الخلق بـ (كن) ، كما أن الله عز وجل يريد لصفاته أن تتحقق في كونه بصورة واضحة وجلية فلو تم خلق السموات والأرض بالأمر الإلهي (كن) لاتصف بالآمر أكثر من إتصافه بالخالق أو الباريء أو المصور أو البديع ولكن مباشرته سبحانه خلق السموات والأرض والمراحل الأولى من أصل كل كائن من الكائنات بالخلق المباشر تؤكد اتصافه سبحانه بأنه هو الخالق الباريء المصور بديع السموات والأرض .

ورداً على من يستكثر الستة أيام على هذا الإعجاز الإلهي فإننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن كل مخلوق من هذه المخلوقات التي خلقها الله في هذه الأيام الستة يحتاج إلي مراحل وأطوار يمر بها حتى يكتمل خلقه فمثلاً الإنسان يمر بمرحلة العدم ثم التراب ثم الطين ثم الصلصال وبينها وبعدها مراحل لا يعلمها إلا الله ، وهكذا سائر الكائنات الحية ، وكذلك خلق الأرض والجبال والبحار والأشجار والسموات والكواكب والنجوم وغير ذلك جميعها لها مراحل وأطوار تمر بها بدءً بالعدم ثم المادة الأولية وهكذا حتى يكتمل خلقها وهي مراحل في مجموعها لا حصر لها ولا يعلم عددها إلا الله .. فلو أن كل مرحلة من هذه المراحل استغرقت من الله عز وجل بالخلق المباشر قدر زمن (كن) حتى تنتهي إلى المرحلة التي تليها لاحتاج هذا الكون الفسيح المتقن المرئى وغير المرئى والمادي وغير المادي (كالموت والنفوس والأرواح) إلى ستة أيام حتى يستكمل خلقه ...

ومع ذلك فإن الله قادر على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما بيده من العدم إلى صورتها النهائية بعد إستكمال خلقها مروراً بهذه المراحل جميعها في نفس الزمن الذي تستغرقه كلمة (كن) ، أما لماذا خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يخلقها بيده في التو واللحظة فلأسباب وحكم بالغة نجهلها ولا يعلمها إلا الله ولعل من بينها أن الله رفيق يحب الرفق ولا يحب الشدة فأراد أن يتعامل مع المواد الأولية التي خلقها من العدم والتي سيخلق منها السموات والأرض وما بينهما أن يتعمل معها بالرفق والرحمة وليس بالقسوة والشدة ، وأيضاً لأن إتمام خلقها في ستة أيام أتقن بلا شك من خلقها في أقل من ذلك يقول عليه الصلاة والسلام (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه) [١] ويقول تعالى عن نفسه ﴿ **الذي أحسن كل شيءٍ خلقه** ﴾ [٢] ، ﴿ **الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾ [٣] ، ويقول ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾ [٤] .

ما أردناه من حديثنا السابق إبراز ثلاثة أشياء هي ملخص ما سبق :-

١ - عدم الإستهانة بقدرة الله وبما تم إنجازه في هذه الأيام الستة واعتبار ذلك دليل قدرة وإعجاز لا يقدر عليه إلا الله .

٢ - إن إعادة الخلق أهون من بداية الخلق وكلاهما هين على الله وإن بداية الخلق من العدم تم بالخلق المباشر وليس بـ (كن) وهذه حقيقة جاء ذكرها في القرآن الكريم ، أما ما تلى ذلك فقد خُلق بـ (كن) .

٣ - إن الله عز وجل لا منتهى لقدرته ولا يعجزه شيء وأنه لو أراد أن يخلق

---

(١) رواه البخاري (٢) آية ٧ السجدة (٣) آيتي ٣ ، ٤ الملك (٤) آية ٨٨ النمل

ما خلقه في نفس زمن (كن) بيده لتم له ذلك في أقل من لمح البصر ولكن الله خلقها في ستة أيام لأسباب وحكم بالغة لا يعلمها إلا الله دون أن ينقص ذلك من قدر هذا الإعجاز ولعل من بينها الرفق والإتقان .

وهناك ثلاثة أشياء أخرى لابد من ذكرها نختم بها حديثنا :-

١ - لقد ذكر الله في كتابه الكريم بأنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولو أراد أن يذكر أنه خلقهما في لمح البصر لإرضاء المستكثرين للستة أيام الذين يقيسون قدر المعجزة بمقياس الزمن وحده دون النظر إلى الإعتبارات الأخرى .. لو أراد الله أن يذكر ذلك لفعل وما كذبه أحد من خلقه لأن هذا الحدث لم يطلع عليه أحد إلا الله وحده يقول تعالى ﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا** ﴾ (١) ولكنه الصدق الذي اتصف به الخالق وأراد أن يعلمنا إياه يقول تعالى ﴿ **ومن أصدق من الله حديثاً** ﴾ (٢) ، ﴿ **ومن أصدق من الله قيلاً** ﴾ (٣) ، ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (٤)....

كما أن في ذلك دلالة أيضاً على صدق القرآن الكريم في جميع ما أخبر به يقول تعالى ﴿ **وإنه لكتابٌ عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ (٥) .

وبرغم أن الله قادر على إتمام الخلق في أقل من ستة أيام إلا أنه أراد أن يسجل حقيقة الواقع الذي تم بالفعل ، ونحن أيضاً أردنا أن نسجل الواقع الذي أثبته القرآن الكريم من أن خلق الله للأشياء من العدم بدأ بالخلق المباشر وليس بـ (كن) برغم اعتقادنا أن الله لو أراد أن يخلقها من العدم بـ (كن) لتم له ما يريد .

---

(١) آية ٥١ الكهف
(٢) آية ٨٧ النساء
(٣) آية ١٢٢ النساء
(٤) آية ١١٩ التوبة
(٥) آيتي ٤١ ، ٤٢ فصلت

٢ - ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه معجزة القرآن الجزء الثالث الفصل الأول صفحة ٢٨٢ ما نصه : [الخلق من عدم أصعب من الخلق من وجود ونحن نقول هذا لتقريب المعنى إلى العقل البشري فليس هناك عند الله سبحانه وتعالى سهل وصعب بل كل شيء يخضع لكلمة (كن)] .

أرى من الأفضل أن نثبت لله ما أثبته لنفسه ونقف عند حدود الألفاظ القرانية ولا نتجاوزها فالله عز وجل ذكر أن كل شيء عنده سهل وهين قال تعالى ﴿ **هو عليَّ هين** ﴾ (١) ، كما ذكر أن إعادة الخلق من وجود أهون عليه من بداية الخلق من عدم قال تعالى ﴿ **وهو الذي يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ (٢) معنى ذلك أننا لا يجوز أن نعكس العبارة ونقول بأن الخلق من عدم أصعب من الخلق من وجود ونظن أنها تؤدي نفس المعنى لأننا إذا قلنا ذلك فإن المعنى يتعارض مع ما قرره الله بأن كل شيء عنده سهل وهين ، والفرق بين العبارتين هو نفسه الفرق بين استعمال (هين و أهون) وبين استعمال (صعب وأصعب) فالأولى تعني أن الأمرين كلاهما هين ولكن أحدهما أهون من الآخر ، أما الثانية فإنها تعني أن الأمرين كلاهما صعب ولكن أحدهما أصعب من الآخر وهذا لا يجوز في حق الله لأن الشيء لا يكون صعباً إلا إذا عجز الشخص عن الإتيان به أو أتى به بعد جهد ومشقة بالغة والله سبحانه وتعالى كما نعلم لا يعجزه شيء كما أنه منزه عن أن يمسه أدنى درجات التعب يقول تعالى ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ (٣) ، قال الإمام الشوكاني في فتح القدير (الشيء الهين إذا لم يصعب ولم يمتنع عن المراد) .

أما لماذا كان إعادة الخلق أهون على الله من بداية الخلق مع أن كلاهما هين على الله ؟

هناك سببان السبب الأول أن إعادة الخلق يتم من شيء موجود وهي المادة

---

(١) آية ٩ مريم (٢) آية ٢٧ الروم (٣) آية ٣٨ ق

الأولية التي منها يعاد تركيب الجسد وكذلك النفس أو الروح التي غادرت الجسد ثم تعاد إليه مرة أخرى ، أما بداية الخلق فإنه بدأ من العدم لأن كلاً من المادة الأولية والنفس أو الروح لم يكن لهما وجود فخلقها الله من العدم .

والسبب الثاني أن بداية الخلق قد باشره الله عز وجل بنفسه أما إعادة الخلق فإنه يتم بالقول الإلهي (كن) ، ومهما كان الأول هيناً على الله فإن الثاني أهون منه حتى ولو تم الأول في نفس زمن الثاني في أقل من لمح البصر لأنه لا يوجد ما هو أهون من أن يقال للشيء كن فيكون .

ولقد ذكر الإمام الشوكاني هذه الحقيقة في كتابه فتح القدير بقوله (الإعادة أهون لأن الله يقول له يوم القيامة كن فيكون) .

٣ - ذكر فضيلة الشيخ في موضع من كتابه معجزة القرآن (الجزء الثالث الفصل الثالث صفحة ٣٢١) أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام كأيام البشر لأن القرآن يخاطب الإنسان ، ثم ذكر في موضع آخر (الجزء الأول الفصل الخامس صفحة ٧١) بأن هذه الأيام الستة هي من أيام الله واستشهد بقوله تعالى ﴿ **وإن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدون** ﴾ [١] وهذا يعد تناقضاً في الرأي والإجتهاد ، وأرى والله أعلم أنها ستة أيام من أيام البشر لأن الله يخاطب البشر بما يفهمونه ، أعلمُ أن الظواهر الكونية التي يقاس بها تقدير اليوم بـ ٢٤ ساعة وفق حسابنا لم تكن قد خلقت بعد ولكن الله لا يعجزه أن يقدر هذ الفترة وفق حسابنا .

والدليل على أنها محسوبة بأيام البشر قول النبي ﷺ (خيرُ يومٍ طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خُلق آدم) [٢] ورواية أخرى أن الله خلق آدم في آخر ساعة من يوم الجمعة قال عليه الصلاة والسلام (وخُلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق وآخر ساعة من النهار فيما بين العصر إلى الليل) [٣] فلو كان اليوم

(١) آية ٤٧ الحج (٢) رواه مسلم (٣) رواه مسلم

بألف سنة لاشتمل على مئات من يوم الجمعة وسائر أيام الإسبوع ولما كان هناك الميزة والخيرية التي ذكرها النبي ﷺ ليوم الجمعة .

ودليل ثاني عندما ذكر اليهود أن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام تبدأ بالأحد وتنتهي بالجمعة نسبوا إلى الله سبحانه أنه استراح يوم السبت ولذلك فإنهم يتخذونه عيداً لهم فغضب رسول ﷺ وأنزل الله قرآناً يكذبهم في ادعائهم التعب لله سبحانه وحاجته إلى الراحة قال تعالى ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب** ﴾ [1] .

ولو كان اليوم بألف سنة لذكر الله ذلك حين حتى لا يكون ليوم السبت ميزة بسبب استحالة المقارنة والتطابق بين يوم السبت وبين اليوم الذي يعادل ألف سنة .

ودليل ثالث عندما خاطب الله كفار قريش بقوله ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين** ﴾ [2] فهو قطعاً يخاطبهم بما يفهمونه من قدر اليومين وهي فترة تحمل في طياتها الإعجاز والتحدي ، والمعلوم أن الكفار لا يؤمنون ولا يصدقون بأن اليوم عند الله كألف سنة مما عندهم لأنهم لا يؤمنون بالقرآن فكيف يخاطبهم الله وفق هذا التقدير ؟

لابد أن تكون المخاطبة وفق ما يعتقدونه بحساب البشر .

---

(١) آية ٣٨ ق (٢) آية ٩ فصلت

الوقفة الرابعة

ما يتعلق بعذاب القبر ونعيمه

الوقفة الرابعة

مـا يتعلـق بعـذاب القـبر ونعيمـه

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه الثالث من سلسلة معجزة القرآن بعنوان (مشاهد يوم القيامة) صفحة ٢٢٦ وأيضاً كتابه الرابع صفحة ٧١ وكتابه الخامس صفحة ٥٨ ذكر أنه لا يوجد عذاب حقيقي أو نعيم حقيقي في القبر وإنما يعرف الإنسان في قبره مصيره فإذا رأي مقعده ومنزلته في الجنة فإنه يحس وكأنه يعيش في الجنة ونعيمها ، أما إذا رأى مقعده ومنزلته في النار فإنه يحس وكأنه يتقلب في النار وضرب فضيلته مثلاً لذلك بالنائم الذي يرى نفسه يمشي في منامه مع أن قدميه لم تتحركا ويرى أشخاصاً وصوراً ملونة وأماكن غريبة يذهب إليها مع أن عينيه مغلقتان ويسمع أصواتهم مع أن أذنيه لم تسمعا شيئا .

لا شك أن الميت يحس بمجموعة من الأحاسيس المعنوية فهو حينما يرى مقعده من الجنة يفرح وحينما يرى مقعده من النار يتألم ولكن لا ينبغي لنا أن نفسر كل شيء يحدث للميت على أنه مجرد أحاسيس معنوية لأن هذا الإعتقاد يصطدم مع النصوص الشرعية التي تؤكد بأن الميت يأتيه ملكان فيُجلسانه ويسألانه وأنه يُعذَّب عذاباً حقيقياً أو يُنَعَّم نعيماً حقيقياً ، وما دامت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة قد ذكرت أن هذا العذاب أو النعيم واقع بالميت فلا سبيل لإنكاره أو تأويله بصورة معنوية فقط .

لقد كان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله في دعائه من فتنة القبر ومن عذاب القبر وذَكَرَ أن سورة الملك منجية تنجي صاحبها من عذاب القبر إذا قرأها كل ليلة

، ومر مع أصحابه على قبرين فذكر أن صاحبيهما يعذبان وما يعذبان في كبير فأما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستبرأ من بوله ، وذكر بأن الكفار وأصحاب المعاصي يعذبون في قبورهم وأن الصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من الطاعات تقي الميت من العذاب ، وذكر أن القبر أول منازل الآخرة إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ، وفي الحديث الذي أخرجه مسلم أن رسول الله ﷺ قال (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدفنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه) ثم أمر أصحابه بأن يتعوذوا بالله من عذاب النار ومن عذاب القبر ، وفي رواية للإمام أحمد قال رسول الله ﷺ (لولا أن تدافنوا لدعوت الله عز وجل أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمعني) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن عذاب آل فرعون في قبورهم فقال ﴿ **النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا ءال فرعون أشد العذاب** ﴾ [1] .

وقد ورد أن العذاب الحسي للموتى في قبورهم يكون إما بالنار أو بالملائكة يضربونهم بالمقامع أو بدواب الأرض كالثعبان أو بالقبر يضيق عليه بالإضافة إلي العذاب المعنوي بأن يرى مقعده من النار رؤية حقيقية بأن ترفع عنه الحجب والله قادر على ذلك فيأتيه من حرها وريحها فيقول رب لا تقم الساعة .

وهناك من الشواهد ما يؤكد هذا العذاب الحسي أظهره الله لبعض خلقه للعظة والإعتبار ولكي يبين صدق ما أخبر به نبيه ﷺ لذلك فمن الخطأ تشبيه الموت بالنوم لدرجة التطابق لأن لكل منهما قانون الخاص به .

أرى أن الميت لا يصيبه العذاب في جسده الذي خرجت منه روحه لأن هذا الجسد مصيره إلي التحلل والفناء كما أنه قد أدى مهمته التي خُلق من أجلها في الحياة الدنيا ليبتلي الله الإنسان هل يستعمله في الحلال أم في الحرام وليسعى به

---

(١) آية ٤٦ غافر

ويكدح في حياته الدنيا ثم تنتهي مهمته بخروج الروح منه فلا وجود لهذا الجسد في حياة البرزخ لأنه ليس خاضعاً لقوانينها ، فاذا كان يوم القيامة بعث الله الإنسان بجسده الذي كان عليه في الدنيا ليبرهن لعباده قدرته على إعادة الجسد بعد أن صار تراباً ولتكون أعضاء هذا الجسد شاهدة على ما ارتكبه بها صاحبها من المعاصي والآثام ولولا هذين السببين لبعث الله الإنسان في أي جسد أو في أي صورة لأن ذات الإنسان ليست جسده وإنما نفسه المحبوسة داخل هذا الجسد والدليل على ذلك أن الله عز وجل يخاطب الإنسان المؤمن الذي يحتضر قائلاً ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ [1] ، وملك الموت يخاطبه عند قبض روحه قائلاً (يا أيتها النفس الطيبة أخرجي إلي مغفرة من الله ورضوان) ويخاطب الكافر قائلاً (يا أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب) [2] ، وإذا صعدت روح المؤمن تسأل الملائكة ما هذه النفس الطيبة ؟ فيقال فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ويقول الله اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض ، وهكذا الكافر إذا صعدت روحه تسأل الملائكة ما هذه النفس الخبيثة ؟ فيقال فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا ويقول الله اكتبوا كتاب عبدي في سجين في الأرض السفلى .

نخلص من ذلك أن ذات الإنسان هي روحه أو نفسه بمعنى أدق وليست جسده ، وهذه النفس هي التي تفرح وتحزن وتتلذذ وتتألم وتشقى وتنعم وتعذب ولكنها تتلذذ أكثر وتتألم أكثر إذا احتواها الجسد فلا تكون مجرد أحاسيس بل تتجسد بشكل مؤثر تتجرعه وتتذوقه النفس ، فهناك فرق كبير في اللذة بين أن يرى الإنسان نفسه يأكل ويشرب في منامه فهذه مجرد أحاسيس وبين أن يأكل ويشرب حقيقة لأنها تحقق له متعة التذوق ، وكذلك هناك فرق كبير في الألم بين أن يرى

(١) آيتي ٢٧ ، ٢٨ الفجر

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي

الإنسـان نفسه في منامه أنه يغرق أو يحترق أو يختنق فهذه مجرد أحاسيس وبين أن يحدث له ذلك حقيقة ويتذوق أو يتجرع آلامه وهذه هي الحكمة التي من أجلها يركب الله نفس المؤمن في جسد ويدخله الجنة إمعاناً له في التنعم حتى لا يكون النعيم مجرد إحساس للنفس فقط ولكن تجسيداً وتذوقاً لهذا النعيم بصورة أكبر للنفس (التي هي ذات الإنسان) المركبة في هذا الجسد .

وأيضاً يركب الله نفس الكافر في جسد ويدخله النار إمعاناً له في العذاب حتى لا يكون العذاب مجرد إحساس للنفس فقط ولكن تجسيداً وتذوقاً للنفس المركبة في هذا الجسد يقول تعالى : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ (١) .

وما دامت النصوص الشرعية قد ذكرت بأن حياة البرزخ بها نعيم حقيقي ملموس وعذاب حقيقي ملموس وليس مجرد إحساس فقط فإنني أرى أنه بمجرد حدوث الموت ومغادرة النفس لهذا الجسد المادي وانتقالها من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ فإن النفس تسكن إطاراً أو هيكلاً أو جسداً من نوع آخر غير مادي وغير مرئي يخضع لقوانين حياة البرزخ حتى يتسنى للنفس أن تتذوق طعم النعيم أو العذاب ، يقول تعالى عن حياة الآخرة وحياة البرزخ ﴿ **نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون** ﴾ (٢) .

وانتقال النفس إلى هذا الجسد غير المادي وغير المرئى أمر غير مستبعد لأن الله خلق الأشياء المنظورة وغير المنظورة يقول تعالى ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون** ﴾ (٣) فنحن مثلاً لا نرى الملائكة ولا نرى ملك الموت ومعه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب عندما يحضرون لقبض روح الإنسان يقول تعالى ﴿ **ونحن أقرب**

---

(١) آية ٥٦ النساء (٢) الآيات من ٦٠ حتى ٦٢ الواقعة (٣) آية ٣٨ الحاقة

إليـه منكم ولكن لا تبـصـرون ﴾ [1] ، ولا نرى الجن ومنهم إبليس وأعوانه يقول تعالى **﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾** [2] ، وهناك أمور غيبية كثيرة تحدث أمامنا ولا نراها .

وحياة البرزخ تختلف في قوانينها تماماً عن الحياة الدنيا فالنفس أو الروح لا تسكن جسداً واحداً يلازمها ويعطيها صورة واحدة لا تتغير كصورة الإنسان في الدنيا ولكنها تتنقل بين أجساد أو هياكل مختلفة وتتشكل في صور مختلفة تماماً كما تتشكل الملائكة والجن في صور مختلفة فأول هذه الأجساد والهياكل والصور غير المرئية هي التي تحاط بها النفس عند الإحتضار فتضرب الملائكة وجه الكافر ودبره ضرباً لا يترك أثراً في جسده المادي يشعر به الكافر ولا يشعر بذلك من حوله يقول تعالى **﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلامٍ للعبيد ﴾** [3] ، وتكفنه الملائكة كما يكفن الناس جسده المادي فإن كان مؤمناً جعلوه في كفن من أكفان الجنة من الحرير وحنوط من حنوط الجنة من المسك والريحان ، وإن كان كافراً كفنوه في المسوح وهو اللباس الخشن المقوت به حنوط يخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض وفي ذلك دلالة ثانية على وجود النفس داخل جسد أو هيكل غير مادي وغير مرئى ، والمؤمن إذا صعدت به الملائكة إلى السماء الدنيا يشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا به إلى السماء السابعة تماماً كما يشيع أهل الأرض جثمانه أو جسده المادي إلى القبر وهذه دلالة ثالثة ، والكافر لا تفتح له أبواب السماء الدنيا فتطرح روحه أو نفسه طرحاً إلى الأرض فيشعر بألم السقوط والإرتطام بالأرض تماماً كما لو سقط بجسده في الدنيا من السماء إلى الأرض وهذه دلالة رابعة على وجود نفسه داخل هيكل أو جسد غير مرئي ليذوق طعم العذاب ، يقول تعالى **﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق ﴾** [4] .

---

(١) آية ٨٥ الواقعة (٢) آية ٢٧ الأعراف (٣) آيتي ٥٠ ، ٥١ الأنفال (٤) آية ٣١ الحج

ثم إن روح أو نفس المؤمن والكافر تعاد إلي قبره فيحتويها جسد آخر غير مادي وغير مرئى في نفس الموضع الذي يرقد فيه جسده المادي فيأتيه الملكان فيجلسانه ويسألانه فيجيبهما ثم ينعم أو يعذب ، كل ذلك يقع على الجسد غير المرئى وغير المادي وليس على الجسد المادي لأن الأول يخضع لقوانين حياة البرزخ أما الثاني فقد انتهت مهمته بانتهاء دنياه فمصيره إلى التحلل والفناء والزوال حتى يعيده الله يوم القيامة ولذلك فإننا ربما قد نفتح المقبرة على الميت حديث الدفن أو نتابع بأبصارنا أجساد الفراعنة أو غيرهم من الكفار في توابيتها الزجاجية ليلاً ونهاراً فلا نرى فيها أثراً للتعذيب أو تحركاً للجسد عن هيئته عندما يأتيه الملكان يجلسانه للسؤال ، وربما يحترق جسد الميت ويتحول إلى رماد وينثر في أماكن متعددة فلا نراه يتجمع حتى يتسنى للملائكة سؤاله وتعذيبه .

نحن نؤمن بأن الله سيجمع هذا الجسد ويبعثه يوم القيامة ، أما في حياتنا الدنيا فإن الجسد يبقى على ما هو عليه وهذا ما يجعلني أعتقد بأن الجسد الذي يُجلسه الملكان ويُنَعَّم أو يُعَذَّب هو جسد آخر غير هذا الجسد المادي لا نراه وربما يكون هذا الجسد غير المرئى وبداخله النفس ملاصقاً أو متداخلاً مع الجسد المادي .

والروح سريعة التنقل فنفس المؤمن تتنقل بسرعة مذهلة بين السماء والأرض وتأخذ أشكالاً وصوراً مختلفة فلا تستقر في جسدٍ واحد كما هو الحال في الدنيا فتارة نجدها تُنَعَّم في جسدها بالقبر وترى عملها الصالح في صورة شاب جميل الوجه جميل الثياب وترى مكانها في الجنة ويأتيها من ريحها وطيبها ، وتارة ثانية نجدها في عليين مجمع أرواح المؤمنين ، وتارة ثالثة نجدها في جوف طائر أخضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش إن كانت روح شهيد أو تكون على شكل طائر في الجنة تأكل من أشجار الجنة وهي روح عامة المؤمنين ، وجميع هذه الصور عبارة عن أجساد تتنقل فيها الروح فأرواح المؤمنين ترى الجنة وتشم رائحتها حقيقة وليس في القبر وحده ، وربما

كان هناك صلة بين حقيقة الرؤية والشم في الجنة وبين الرؤية والشم في القبر فما تراه الروح وتشمه وهي في داخل الجنة على شكل طائر ينقل إليها وهي في القبر داخل الجسد .

وقد يعود السبب في تعرف أهل الجنة على منازلهم بها يوم القيامة حين يدخلونها إلى كون أرواحهم قد تنقلت داخل الجنة في حياة البرزخ بالإضافة إلى هداية وإلهام الله لهم ، يقول تعالى ﴿ **ويُدخلهم الجنة عَرَّفَهَا لهم** ﴾ [1] ، ويقول رسول الله ﷺ (والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا) [2] .

أما روح أو نفس الكافر فإنها أيضاً تأخذ أشكالاً وصوراً مختلفة فتارة تكون محبوسة داخل جسدها غير المرئى في القبر فتُعَذَّب ، وتارة تكون محبوسة في سجين بالأرض السفلى مجمع أرواح الكفار والأشرار .

وليس الجسد المعذبة فيه نفس الكافر في القبر هو فقط غير المرئى ولكن حتى الأشياء الموكلة بسؤاله وتعذيبه هي أيضاً غير مرئية كالملائكة والنار والثعبان وغير ذلك جميعها ليست أجساداً مادية منظورة ، يقول تعالى ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة** ﴾ [3] أي أن ملك الموت الذي وكل بقبض أرواحكم ومعه أعوانه سيدخلون عليكم لقبض أرواحكم ولو كنتم متحصنين في حصون منيعة ومغلقة وعالية ففهم من ذلك أن الملائكة تخترق الجدر والموانع المادية كما تخترق الأشعة العظام والأجسام المادية ، ونحن نشاهد الميت وهو يحتضر فلا نرى ملك الموت وأعوانه ولا نحس بهم وكذلك الملكين الكتبة عن اليمين وعن الشمال قعيد فلماذا نستبعد أن يحدث هذا في القبر ؟

إن عدم رؤيتنا لجسد الميت المادي يجلس أو يتحرك أويظهر عليه أي أثر

---

(١) آية ٦ محمد (٢) رواه البخاري (٣) آية ٧٨ النساء

للتعذيب عند احتضاره أو بعد مماته وعدم رؤيتنا للأشياء الموكلة بتعذيبه هو حق لا يمكن إنكاره .

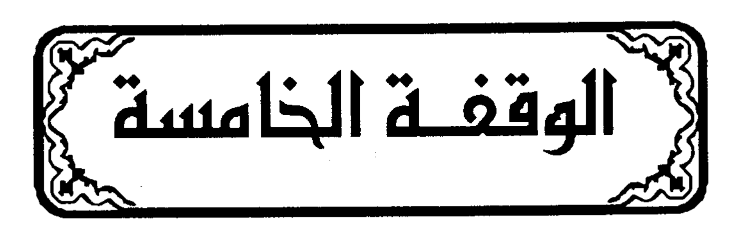
كما أن ما ذكره الله ورسوله من عذاب الكافر عند احتضاره وفي قبره بعد مماته وكذلك عذاب العصاة وأصحاب الكبائر في قبورهم هو حق أيضاً لا يمكن إنكاره ، ومن المحال وجود تعارض بين أمرين كلاهما حق .

من أجل ذلك كان لزاماً علينا أن نؤمن بما ذكره الله ورسوله من وقوع هذا العذاب الحسي ولكن على جسد غير مرئى وبوسيلة غير مرئية طالما أن هذا الإعتقاد وهذا الإجتهاد لا يتعارض مع نصوص شرعية أخرى واضعين نصب أعيننا قوله تعالى ﴿ **نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون** ﴾ [1] ، وقوله تعالى ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون** ﴾ [2] .

ولا شك أن هذا الإعتقاد خير من إنكار البعض لعذاب القبر الحسي لتعارضه مع الواقع المشاهد والإعتقاد بأنه عذاب معنوي فقط شبيه بما يراه النائم في منامه لأن هذا الإعتقاد الأخير يتعارض كلياً مع النصوص الشرعية .

---

(١) الآيات من ٦٠ حتى ٦٢ الواقعة (٢) آية ٣٨ الحاقة



الوقفة الخامسة

ما يتعلق بإعادة جسم الإنسان عند بعثه

الوقفة الخامسة

ما يتعلق بإعادة جسم الإنسان عند بعثه

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في الفصل الرابع من الكتاب الرابع من سلسلة معجزة القرآن بعنوان مشاهد يوم القيامة صفحة ٩٨ حتى ١٠٢ والكتاب الخامس صفحة ٥٢ ، ٥٣ .. ذكر فضيلته أن من الناس من يتعجب كيف يجمع الله جسد الإنسان بعد مماته ليبعثه من جديد بعد أن تحلل جسده وتحول إلى عناصر تغذت منها النباتات ثم أكل الناس والحيوانات من هذه النباتات ثم ماتوا وتحولوا إلى عناصر تغذت منها النباتات وهكذا فأصبحت العناصر مختلطة وفي أجساد متفرقة ذكر فضيلته عند رده على هؤلاء المتشككين ما نصه : [إن كل إنسان منا يتكون جسمه من الستة عشر عنصراً الموجودة في الأرض ، وإن الذي يميز إنساناً عن إنسان آخر هو اختلاف نسب هذه العناصر الستة عشر ، وإن تكوين هذه النسبة هو الذي يكون كل شخص فينا فإذا أُعِدَّت النسب بنفس تكوينها عاد الشخص هو هو إلى الحياة ، أي أن اختلاف النسب يحفظ لهذه الأجساد خصوصيتها فإذا قال الله سبحانه وتعالى (كن) عادت هذه النسب بنفس الطريقة التي تكونت بها فيبعث الإنسان يوم القيامة بجسده هو هو] .

إنني لا أوافق فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي على هذا التفسير للأسباب التالية :-

١ - إن إعادة وضبط نسب العناصر الستة عشر بنفس ما كانت عليه هذه النسب في الإنسان قبل مماته لا تجعل الإنسان يُبعث يوم القيامة بجسده هو هو كما يقول فضيلته وإنما ربما بجسد مشابه لجسده الذي كان عليه في الدنيا لأن ذرات العناصر الستة عشر الي ستُضبط نسبتها ليست هي ذاتها ذرات العناصر الستة

عشر التي كانت في جسده قبل الممات وإنما متطابقة معها في النسب فقط ولنضرب مثلاً على ذلك بامتزاج الألوان فلو أننا أحضرنا وعاءين ووضعنا في الوعاء الأول ستة عشر لوناً أصلياً (على افتراض ذلك) بنسب مختلفة وخلطناها جيداً ثم وضعنا في الوعاء الثاني نفس الستة عشر لوناً وكانت نسبة كل لون مماثلة تماماً لنسبته في الوعاء الأول وخلطناها جيداً بنفس درجة الخلط ، بالطبع فإن محتوى الوعاء الثاني لن يكون هو ذاته محتوى الوعاء الأول وإنما سيكون صورة طبق الأصل منه أي مماثلاً له وشبيهاً به .

٢ - إذا كانت عملية إعادة جسم الإنسان عند بعثه بهذه البساطة المعملية فكيف إذن يعاد للإنسان بصمته ووحمته (إن كانت به وحمة أو شامة تميزه) وطول قامته وملامح وجهه التي تعطيه شكلاً مميزاً ؟ إن لكل إنسان بصمات تميزه عن غيره من ملايين الناس في أطرافه ووجهه وصوته ورائحته وحركته عند المشي وحركة يده عند الكتابة وغير ذلك .

٣ - إن هذا التفسير يشكك في قدرة الله على إعادة تركيب جسم الإنسان من نفس الذرات والعناصر بذاتها وبعينها التي كانت في جسمه قبل مماته والتي اختلطت بعناصر أخرى بعد أن تغذت عليها النباتات والناس والحيوانات ثم ماتت وتحللت وكأننا نشعر في أعماق نفوسنا بأن حدوث ذلك محال وصعب ومستبعد على قدرة الله تعالى فخرجنا بهذا الشرح أو التفسير لنجد لله حلاً سهلاً لهذه المسألة المعضلة ، ولكن من كان مثل فضيلته يؤمن بأن الله على كل شيء قدير لا ينبغي له أن يأتي بهذا الشرح ليقنع المتشككين بإمكانية البعث .

٤ - إن أكبر دليل على أن الإنسان يُبعث يوم القيامة بنفس ذرات وعناصر جسمه أن أعضاء جسمه تشهد عليه بما ارتكبته من المعاصي والآثام ، ولو كانت الذرات والعناصر مماثلة أو مشابهة فقط في نسبتها لما شهدت بذلك ... أتشهد على معصية لم ترتكبها ؟ يقول تعالى ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم**

وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ [1] ، **﴿ وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾** [2] ، **﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾** [3] ، **﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾** [4] .

فالله عز وجل يبعث الإنسان ويعيد روحه إلى نفس جسده لسببين : **أولهما** ليبرهن للعباد أنه على كل شيء قدير ، **وثانيهما** لكي تشهد أعضاء هذا الجسد على أن العبد استخدمها في ارتكاب المعاصي والآثام ليقيم الحجة عليه لأن الله يعلم بأن الإنسان مجادل يقول تعالى **﴿ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً ﴾** [5] .

ومن الأدلة القرآنية أيضاً على إعادة الإنسان بنفس عناصر جسمه قوله تعالى **﴿ أيحسب الإنسان ألن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوّيَ بنانه ﴾** [6] فالله قادر على جمع نفس عظامه وليس لعظام مماثلة لها .

ومن الأدلة أيضاً ما ورد في تفسير قوله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام **﴿ فَخُذْ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً ﴾** [7] فقد أوثق نبي الله إبراهيم عليه السلام رؤوس هذه الطيور الأربعة عنده ثم ذبح أجسادهن وقطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم دعاهن كما أمره الله أن يحيين بإذن الله ويأتينه سعياً فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلي الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ثم أتينه سعياً يلتحمن برؤوسهن الموثوقة عنده ليكون ذلك دليلاً على أنهن نفس الطيور الأربعة المذبوحة وليس غيرهن .

٥ – لقد بين الله سهولة إعادة الإنسان بنفس ذرات وعناصر جسده فقال

---

(١) آية ٢٤ النور
(٢) آية ٢١ فصلت
(٣) آية ٢٢ فصلت
(٤) آية ٦٥ يس
(٥) آية ٥٤ الكهف
(٦) آيتي ٣ ، ٤ القيامة
(٧) آية ٢٦٠ البقرة

﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾ [١] وقال تعالى ﴿ **ذلك حشرٌ علينا يسير** ﴾ [٢] .

وأرى أن هذه السهولة تعود إلي أمرين متلازمين هما :-

أ - إن الله عز وجل عندما خلق من العدم الذرات والعناصر التي تتكون منها الوحدات البنائية للكون والكائنات أوجد في كل ذرة وفي كل عنصر بصمة الخالق والولاء له وخلق لها الحس والإدراك الذي يمكنها من تسبيح خالقها والتلقي عن الخالق إذا أمرها أن تنصاع لأمره ، وجعل لذرات وعناصر كل جسد شيئاً يميزها عن ذرات وعناصر أي جسد آخر فإذا كان وقت البعث قال الله سبحانه وتعالى لهذه العناصر والذرات لبلايين الخلائق المختلطة والمنتشرة في أماكن مختلفة في البر والبحر كوني كما كنتِ فتأتي ملبية لأمر ربها في الموضع الذي كانت فيه وقت أن تحللت من أجسادها ، تماماً كما أتى الدخان والأرض منصاعين لأمر ربهما يقول تعالى ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سموات في يومين** ﴾ [٣] ، وأيضاً هذه الذرات والعناصر بعد إتيانها وتجمعها يركبها الله أجساداً كما كانت مثل أجزاء الطيور الأربعة التي ذبحها نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام وفرقها بين الجبال فجعلت الأجزاء من كل طائر يطير بعضها إلى بعض ويتصل بعضها ببعض ثم أتينه سعياً لم ينقص من أجسادهن شيء .

ورد في معنى قوله تعالى ﴿**واستمع يوم ينادي المنادي من مكان قريب** ﴾ [٤] أن الله يأمر ملكاً ينادي أيتها العظام البالية والأوصال المتقطعة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وبعد أن تجتمع الذرات والعناصر في الموضع الذي كانت فيه وقت أن تحللت

---

(١) آية ٢٨ لقمان (٢) آية ٤٤ ق (٣) آيتي ١١ ، ١٢ فصلت (٤) آية ٤١ ق

من أجسادها ينزل الله مطراً من السماء عليها وعلى العظام وعلى الأوصال فينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور فإذا نفخ فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله وعزتي وجلالي لترجعن كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فترجع كل روح إلى جسدها [1] .

ب - الأمر الثاني الذي يجعل إعادة الإنسان بنفس ذرات وعناصر جسده أمراً سهلاً أن الله يرى كل ذرة وكل عنصر انفصل وتحلل من البنية الأساسية من جسد كل إنسان وكل مخلوق من بلايين المخلوقات ويتتبع مساره فيرى أين ذهب وإلى أين صار وفي أي مكان استقر به المطاف حتى ولو اختلط بغيره وتنقل في الأجساد وتوغل في متاهات الأرض وأعماق البحار ، ألم يقل الله في كتابه العزيز ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتابٍ مبين** ﴾ [2] ، ﴿ **إنها إن تكُ مثقال حبة من خردل فتكن في صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير** ﴾ [3] ، ﴿ **وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها** ﴾ [4] ، ﴿ **وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين** ﴾ [5] .

فمن الخطأ الفادح أن نقيس قدرات الإله بقدرات البشر فالله سبحانه وتعالى ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [6] قد وَسِعَ سمعه وبصره الكون كله وأحاطا بالكون كله صغيره وكبيره ، دقيقه وجليله ، يسمع الكل ويراه في آن واحد ، لا ينقل بصره من مكانٍ إلى مكان فيغيب عنه مشهد بل وَسِعَ بصره المشاهد كلها في وقت واحد يقول تعالى عن نفسه ﴿ **إنه بكل شيءٍ بصير** ﴾ [7] وهو سبحانه وتعالى في ذلك كله لا يغفل ولا يسهو ولا ينسى ولا يمل ولا يتعب ولا ينام

---

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير
(٢) آية ٦١ يونس
(٣) آية ١٦ لقمان
(٤) آية ٤٧ الأنبياء
(٥) آية ٥٩ الأنعام
(٦) آية ١١ الشورى
(٧) آية ١٩ الملك

فلا تستطيع أي ذرة أو أي عنصر أن تتخلف عن أمر ربها بالعودة إلي موضع الجسد الذي تحللت منه .

وليس الأمر قاصراً على رؤية الله لهذه الذرات والعناصر وتتبعه لمسارها فحسب بل إن حركتها وسكونها ومسارها لم يتم إلا بإذن الله ومشيئته وعلم سابق من الله وقدر مكتوب بما سيكون وفقاً لهذا العلم الإلهي السابق ولذلك حينما استبعد كفار قريش إمكانية إعادة جسد الإنسان وبعثه لنفس الأسباب التي ذكرها المتشككون المعاصرون كما أثبت الله عليهم ذلك بقوله ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أءِذَا متنا وكنا تراباً ذلك رجعٌ بعيد** ﴾ [١] ، رد عليهم رب العزة بقوله ﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتابٌ حفيظ** ﴾ [٢] أي قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم ومن لحومهم وجلودهم وعظامهم وأشعارهم ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلي أين صارت وعندنا كتاب حفيظ قد دون فيه ذلك كله مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **وما تسقط من ورقةٍ إلا يعلمها ولا حبةٍ في ظلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلا في كتاب مبين** ﴾ [٣] ، وفي الحديث (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلي يوم القيامة) [٤] ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿ **ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ [٥] .

فالكون لم يُخلق عبثاً ولم يترك هملاً بل خلق وفق خطة مرسومة وبرامج موضوعة ومقادير مدونة ونظام محكم وعلم وتدبير سابق فالله لا يعلم من بعد جهل ولا يفاجأ بما يراه أويسمعه وإنما الكل قديم في علم الله وهو يرى ويسمع ما هو مطابق تماماً لعلمه السابق ولا يحدث في ملك الله وكونه إلا ما يريد .

---

(١) آيتي ٢ ، ٣ ق
(٢) آية ٤ ق
(٣) آية ٥٩ الأنعام
(٤) رواه الإمام مسلم
(٥) آية ٢٢ الحديد

أقول للمتشككين الذين يستعظمون على قدرة الله إعادة أجسادهم بعد أن تصير تراباً متناثرة في جميع أنحاء الأرض أنه لا أمل لهم في النجاة والتهرب من البعث والمساءلة والعقاب وذلك لأن أصل الإنسان نفسه أو روحه وليس جسده وقد جمع الله أرواح المؤمنين في عليين وحبس أرواح الكفار في سجين فلو أن الله أراد على سبيل الافتراض أن يركب روح الكافر أو نفسه في جسد آخر مخالف لجسده الذي مات فيه ثم بعثه وعذبه لشعر الكافر بأنه قد بعث من جديد وبأنه يتجرع نفس ألم العذاب تماماً كما لو ركبت روحه في جسده الذي مات فيه ، ففيم المجادلة ؟

الوقفة السادسة

ما يتعلق بالكتب
أو صحائف الأعمال

الوقفة السادسة

مـــا يتعلـــق بالكتـــب أو صحائـــف الأعمـــال

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في الكتاب الرابع مشاهد يوم القيامة من سلسلة معجزة القرآن الكريم الفصل الخامس من صفحة ١٣٩ حتى ١٤١ في تفسير قوله تعالى ﴿ **ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضراً** ﴾ [١] ، وفي تفسير قوله تعالى ﴿ **إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ [٢] ، ذكر فضيلته أن الدليل الدامغ يوم القيامة لأن يكون الإنسان شهيداً على نفسه أنه يرى كل حياته أمامه كفيلم سينمائى ولن يستطيع أن ينكر شيئاً لأنه سيرى كل شيء مسجلاً بالصوت والصورة ، ولقد اعتبر فضيلة الشيخ أن هذا الفيلم السينمائى هو أكبر دليل دامغ على الإطلاق لا يستطيع الإنسان معه الإنكار ، وقال إذا كان الإنسان لديه القدرة على إقامة هذا الدليل الدامغ عن طريق آلات بالغة في الدقة تسجل للإنسان بالصوت والصورة دون أن يحس بها أو يلحظها بعينه كتلك التي تستخدمها المخابرات في العالم .. ألا يستطيع الله أن يفعل ذلك ؟ وهل تكتفي الملائكة بكتابة الحسنات والسيئات وإحصائها دون أن يكون لديهم هذا الدليل الدامغ الذي يدحض مزاعم الإنسان ويفحمه إذا حاول أن يكذب على الله ؟ فالله لن يجعلنا نرى كتابنا بهذه الطريقة البدائية بل سيرى الإنسان كل ما فعله وسيسمع كل كلمة قالها وحينما يواجه بكتابه فلن يستطيع أن ينكر أويدعي أنه قد ظلم ، إلي هنا انتهى كلام فضيلة الشيخ .

---

(١) آية ٤٩ الكهف (٢) آية ١٤ الإسراء

أختلف مع فضيلة الشيخ في وجهة نظره واجتهاده سالف الذكر للأسباب التالية :-

أولاً :

يقول الله تعالى ﴿ **فلله الحجة البالغة** ﴾ [1] ، إن طريقة الله في إقناع عباده المذنبين وإقامة الحجة عليهم تختلف تماماً عن طريقتنا فنحن لا نملك قلوب العباد ولا عقولهم فإذا أردنا أن نقنعهم بأمرٍ ما فإننا نستخدم وسائل خارجة عنهم نزينها لهم لعلها تكون سبباً في إقناعهم فنعرض عليهم فيلماً تسجيلياً بالصوت والصورة لأقوالهم وأفعالهم ونظن أن هذه هي أفضل الوسائل للإقناع وما ذاك إلا لعجزنا عن التغلغل في أعماق عقولهم وقلوبهم ، فإذا أردنا أن نهدي إنساناً أو نعلمه شيئاً شرحنا له ما نريد أو جعلناه يقرأه أو جعلناه ينظر إلي أفعالنا لعل الهداية أن تصل إلى قلبه والعلم أن يصل إلى عقله وقد ننجح أو نفشل .

أما الله عز وجل الذي يملك قلوب العباد وعقولهم فلو أراد هدايتهم لقذف الإيمان في قلوبهم وحببه إليهم ولو أراد إقناعهم أو إعلامهم بأمرٍ ما فسوف يقذف المعنى والعلم والإقتناع في عقولهم فالإنسان الأمي غالباً ما يكون جاهلاً لأن العلم يكتسب بالقراءة والكتابة باستثناء النبي ﷺ فإنه لا يقرأ ولا يكتب ولكنه إمام العلماء لأن الله قذف في عقله وقلبه العلم بطريق الوحي فالأمية بالنسبة له ليست عاراً كما هي بالنسبة إلى غيره بل هي وسام له ودليل على صدقه وصدق ما جاء به ، والناس جميعهم في أرض المحشر أو في الجنة أو في النار سواء من كان منهم قارئاً أو أمياً يجدون أنفسهم يقرأون ويتكلمون بلغة واحدة فقد علمهم الله قواعد اللغة وكيفية التحدث بها بقذف المعنى في عقولهم وقلوبهم فأصبحوا يفهمون ما يدور حولهم ويعرفون كيف يتحدثون ويعبرون عما يريدون قوله .

---

(١) آية ١٤٩ الأنعام

ثانيـا :

إن مواجهة المذنب بفيلم تسجيلي لأقواله وأفعاله بالصوت والصورة لحياته كلها ليس هو الدليل الدامغ لإقناعه وعدم إنكاره فإذا كان ناسياً فلن تجدي معه هذه الطريقة فقد يدَّعي أن هذا الشخص الذي يشاهده أمامه ليس هو وإنما شبيهاً به أو أن هذه اللقطات بها مونتاج أو خدعة تصويرية تَسْنِد إليه أعمالاً لم يفعلها وأقوالاً لم ينطق بها شأن ما يحدث في زمننا هذا خاصة وأن الإنسان حين ارتكابه للجريمة أو للمعصية لا يرى نفسه فإذا رأى نفسه يوم القيامة يفعل ذلك فقد ينكر لأنه لم يشاهد هذا المشهد من قبل في حياته الدنيا بعكس لو رأى مشهداً لإنسان آخر فقد يتذكره لأنه سبق أن رأى هذا المشهد من قبل في حياته الدنيا .

إذن هذه الوسيلة البشرية ليست هي أكثر الوسائل تطوراً بل هي وسيلة قاصرة لا تحقق أقوى الأدلة الدامغة والحجج البالغة الساطعة على معاصي العباد .

ثالثـا :

إن المشكلة ليست في إقناع المجرم بجرائمه حتى لا ينكرها فالمجرم في أعماق نفسه مقتنع بما ارتكبه ولكن المشكلة أنه مجادل يحاول الإنكار هروباً من العقاب فيقدم الله له من الأدلة والحجج الدامغة ما يبطل جداله وإنكاره حتى لا يدَّعى أنه ظلم ويحصره بتلك الحجج ويسد عليه المنافذ والطرق فيضطر إلى الإقرار والإعتراف بما ارتكبه .

وأول هذه الأدلة والحجج الدامغة التي لا يقدر عليها إلا الله أنه يقوم من قبره متذكراً كل شيء فعله في حياته منذ ولادته حتى مماته فقد قذف الله في عقله وقلبه كل شيء فتذكر كل شيء بأدق تفاصيله من أقوال وأفعال ، يقول تعالى ﴿ **مهطعين إلي الداعِ يقول الكافرون هذا يومٌ عَسِر** ﴾[1] أي أن الكافر

(١) آية ٨ القمر

يقوم من قبره وهو متذكر لكفره وجرمه فيقول هذا يوم عسر ، ثم يأخذ كتابه فيقرؤه فيجد ما هو متذكره تماماً في عقله الباطن مدوناً بأدق تفاصيله فيقول ﴿ **يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ [1] ، كيف علم أن هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها إلا إذا كان متذكراً لذلك كله ، يقول تعالى ﴿ **ووجدوا ما عملوا حاضراً** ﴾ [2] أي أنه وجد ما في ذاكرته من أعمال ارتكبها حاضرة ومدونة في كتابه ، ويقول تعالى ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ [3] كيف يكون شهيدا على نفسه حسيباً على أفعاله إلا إذا كان متذكراً لما هو مدون في كتابه .

وأعظم دليل على صحة ما ذهبنا إليه قوله تعالى ﴿ **يوم يتذكر الإنسان ما سعى ، وبرزت الجحيم لمن يرى** ﴾ [4] فهذه الآية الكريمة تعطي الدلالة القاطعة والمعنى الصريح الواضح على أن الإنسان يتذكر يوم القيامة جميع ما صدر منه في الدنيا من أقوال وأفعال وما أخفاه في قلبه وصدره من اعتقادات ونوايا طيبة أو خبيثة ، يقول تعالى ﴿ **يوم تبلى السرائر ، فما له من قوة ولا ناصر** ﴾ [5] .

إذن فالإنسان ليس محتاجاً حين يقرأ كتابه أن يشاهد ويسمع كل ما هو مدون من أفعاله وأقواله لأنه متذكر لكل شيء ومقتنع في أعماقه بكل شيء مهما حاول الإنكار والتهرب والمجادلة .

إن مشاهدة الإنسان لفيلم عن حياته بالصوت والصورة لن يجدي شيئاً بدون التذكر وعدم النسيان الذي يقذفه الله في عقله ووجدانه ، وحتى إن كان مصدقاً لما يشاهده ويسمعه فالإنسان منا قد يرى فيلماً مدته ساعتين أو ثلاث ساعات فلا يكاد يصل إلي نصفه أو آخره حتى ينسى بعض الأحداث التي كانت في بدايته فما بالنا بفيلم مدته عشرات السنين هي مدة عمرنا في هذه الحياة ؟

---

(١) آية ٤٩ الكهف
(٢) آية ٤٩ الكهف
(٣) آية ١٤ الإسراء
(٤) آيتي ٣٥ ، ٣٦ النازعات
(٥) آيتي ٩ ، ١٠ الطارق

إن الله عز وجل يفعل الأفضل فيذكرنا بتفاصيل كل شيء ويمنع عنا النسيان وكأننا نرى أفعالنا ونسمع أقوالنا وليس بالضرورة أن نراها ونسمعها حقيقة فإن التذكر يغني عن ذلك كله .

رابعـــا:

إن إطـــلاع العبـــد المذنــب علـى كتابـه ليـس هو نهاية المطاف الذي عنده لا يستطيع العبد إنكار ما ارتكبه كما يقول فضيلة الشيخ بل إن الوارد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة أنه ينكر ما هو مدون في كتابه برغم تصديقه واقتناعه بذلك في أعماقه معتقداً أنه يستطيع بذلك أن يتنصل من جرائمه وينجو من العقاب ، وبالرغم من ذلك فإن للكتاب فائدة عظيمة لأنه يُشعِر المجرم بأن الله كان مطلعاً على أقواله وأفعاله وخفايا نفسه في الدنيا ولا يغيب عن علمه شيء وأن ملائكته كانوا يسجلون عليه كل شيء يقول تعالى ﴿ **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ [1] ، وعلى الرغم من ذلك فإنه ينكر ويجادل فيشهد الله عليه العباد الذين جهر أمامهم بالمعصية فينكر ، ومن المعاصي ما لم يطلع عليها أحد من الناس فيشهد عليه الأرض فتنطق بما ارتكبه فوق ظهرها من المعاصي يقول تعالى ﴿ **يومئذٍ تُحَدِثُ أخبارها ، بأن ربك أوحى لها** ﴾ [2] وهذه حجة ثانية لا يقدر عليها إلا الله ولكنه ينكر فيشهد عليه الملك الذي وكل به لتدوين سيئاته فيقول يا ربِ إن هذا الملك كتب عليَّ أشياء لم أفعلها فيقول الله ولكنني اطلعت ، وبرغم ذلك فإنه ينكر ويجادل من شدة ما يرى من العذاب وصدق الله إذ يقول ﴿ **وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً** ﴾ [3] .

ورد عن رسول الله ﷺ أن العبد يقول لربه ألم تُجرني من الظلم ؟ فيقول الله بلى ، فيقول فإني لا اجيز عليَّ إلا شاهداً من نفسي أي أنه يريد أن يكون هو

---

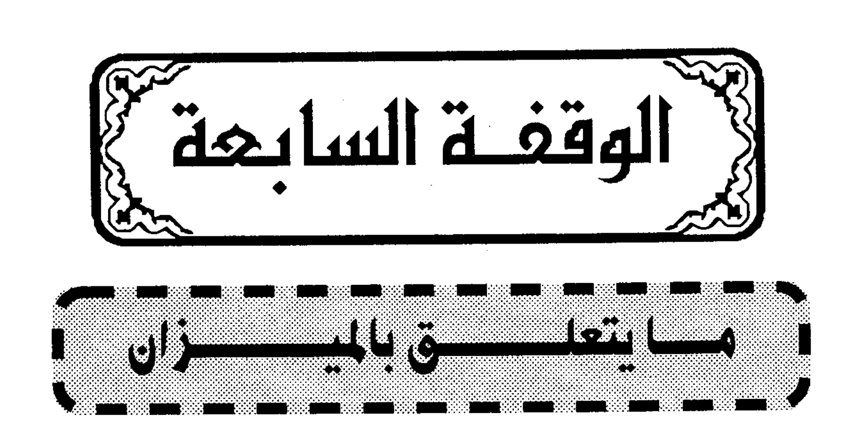
(١) آية ٢٩ الجاثية (٢) آية ٤ ، ٥ الزلزلة (٣) آية ٥٤ الكهف

نفسه الشهيد على نفسه معتقداً أن الله لا يقدر على ذلك فيختم الله على فيه ويستنطق أعضاءه وأركانه وجوارحه فتشهد بما ارتكبه بها من المعاصي والآثام ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول بُعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أناضل [1] ، يقول تعالى ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ [2] ويقول تعالى ﴿ **شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة** ﴾ [3] .

وهذه هي الحجة الدامغة والدليل الساطع الأخير الذي لا يستطيع العبد معه الإنكار فالبشر لا يستطيعون أن يدينوا المجرم أو يقنعوه بجريمته إلا بأدلة خارجة عنه يسمعها ويراها وقد يطعن في هذه الأدلة ويعاقب وهو لم يقر بذنبه بل يدَّعى الظلم ، أما الله فإنه يقذف التذكر والإقتناع في عقله وقلبه ويشهد عليه جسده فيدخل النار وهو مقر بذنبه معترف بأن الله لم يظلمه ، يقول تعالى ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ [4] .

---

(١) رواه مسلم بهذ المعنى (٢) آية ٦٥ يس (٣) آيتي ٢٠ ، ٢١ فصلت (٤) آية ١١ الملك


الوقفة السابعة
ما يتعلق بالميزان

الوقفة السابعة

مـــا يتعلــــــق بالميـــــــزان

أشير في هذه الوقفة إلى ما ذكره فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في الكتاب الرابع مشاهد يوم القيامة من سلسلة معجزة القرآن الكريم الفصل الخامس صفحة ١٣٥ ، ١٣٦ .

لقد عارض فضيلة الشيخ فكرة وجود ميزان منصوب في الآخرة توضع فيه السيئات في كفة والحسنات في كفة فمن ثقلت حسناته وأعماله الصالحة يذهب إلى الجنة ومن زادت سيئاته على حسناته يذهب إلى النار ، وقال بأن فكرة ماديات الدنيا هذه لا يمكن أن تكون في الآخرة فالمسألة ليست أوراقاً مكتوبة بشكل مادي وإنما فكرة الميزان هي فكرة العدل في أساسه وضرب أمثلة على ذلك بأن دار القضاء به رسم للميزان في المكان الذي يجلس فيه القاضي ولكن هل يأتي القاضي بميزان مادي ليحكم في القضايا ؟ وإذا سألت إنساناً لماذا هو صامت قال لك إنه يزن الأمور قبل أن يتكلم وبالطبع هو لم يأتِ بميزان مادي ولكن الميزان وضعه الله في كل نفس للتفريق بين الحق والباطل فالميزان معناه العدل .

أستسمح فضيلة الشيخ في عرض ملاحظاتي على أقواله سالفة الذكر :

اولا :

من المتفق عليه أنه لا اجتهاد مع وجود النص وقد أجمعت النصوص الشرعية من الكتاب والسنة على وجود الوزن والميزان حسياً وليس معنوياً ومن أمثلة ذلك قوله تعالى ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردلٍ أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ [1] ، ﴿ **فأما من ثقلت موازينه**

---

(١) آية ٤٧ الأنبياء

، **فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ﴾** [١] .

والذي عليه الجمهور أنه ميزان واحد وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه .

كما جاء ذكر الميزان في أحاديث نبوية عديدة من أمثلتها قوله عليه الصلاة والسلام (والحمد لله تملأ الميزان) [٢] ، (ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق) [٣] ، (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلي الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)[٤] ، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث البطاقة التي بها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء)[٥] ، وقوله للصحابة بشأن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه (أتضحكون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد) [٦] .

عن أنس قال سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال أنا فاعل إن شاء الله قلت فأين أطلبك ؟ قال أول ما تطلبني على الصراط قلت فإن لم ألقاك ؟ قال فاطلبني عند الميزان قلت فان لم أجدك عند الميزان ؟ قال فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن)[٧] - ، وفي تفسير قوله تعالى ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ [٨] قال عليه الصلاة والسلام (يؤتى بأهل البلاء فلا يُنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان وإنما يصب عليهم الأجر صباً) [٩] ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام (توضع الموازين يوم القيامة فتوزن السيئات والحسنات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابه دخل الجنة ، ومن رجحت

(١) الآيات من ٦ حتى ٩ القارعة
(٢) رواه مسلم
(٣) رواه الترمذي
(٤) رواه البخاري ومسلم
(٥) رواه الترمذي
(٦) رواه أحمد
(٧) رواه الترمذي
(٨) آية ١٠ الزمر
(٩) رواه الطبراني وأخرجه أبو نعيم

سيئاته على حسناته مثقال صؤابه دخل النار ، قيل يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته ؟ قال أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون)[1] .

ثانيــاً:

لا يجوز إنكار فكرة الوزن والميزان لمجرد أننا غير مقتنعين بهذه الفكرة أو لعجزنا عن فهم طبيعة وخصائص هذا الميزان وشكله وكيفية عمله وبإمكاننا أن نقول أن هذا الميزان يختلف كلية عن موازين الدنيا ولكن من الخطأ أن ننكر وجوده لأنه حقيقة واقعة .

ثالثــاً:

إذا كانت فكرة الميزان هي مجرد أنها فكرة العدل في أساسه لكان واجباً في حق كل الناس إذ المعلوم أن أهل البلاء كما ذكر رسول الله ﷺ لا يُنصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان .

وهل يقتصر العدل علي الميزان فقط ؟ أليست صحائف أعمال العباد المدون بها إحصاء بكل صغيرة وكبيرة من أعمالهم وحسناتهم وسيئاتهم أليست هذه من العدل ؟ إذا كان العدل يتحقق بصحائف الأعمال فما الداعي إلى الميزان ؟ ولماذا ورد ذكره في القرآن والسنة ؟ لابد أن الميزان له فائدة وخاصية تميزه عن صحائف الأعمال ، وإذا كان المقصد تحقيق العدل في أهل النار فلا يدخلونها ظلماً لأخرج الله الناس من قبورهم وأدخل مَنْ عَلِمَ أنه من أهل النار النار مباشرة دون حساب ولا صحائف أعمال ولا ميزان دون أن يظلمهم إذن فالحساب وصحائف الأعمال والميزان لها فوائد أخرى فالله لا يحتاج إليها ليقيس بها العدل ولكنه سبحانه قادر على تحقيق العدل بدونها فلو أنه خلق الناس فأدخل من كُتِبَ عليه العذاب النار مباشرة دون أن يُتركوا في الدنيا ودون أن يرتكبوا خطيئة واحدة لكان ذلك عدلاً

---

(١) ذكره خيثمه بن سليمان في مسنده

منافياً للظلم لسابق علم الله بما سيكون من أعمالهم وذنوبهم إن هم تُركوا في الدنيا قال رسول الله ﷺ (ما منكم من نفس إلا وقد عُلِمَ منزلها من الجنة والنار)[1] ، وفي رواية (قيل يا رسول الله أَعُلِمَ أهل الجنة من أهل النار ؟ قال نعم)[2] .

وحينما سُئِلَ النبي ﷺ عن أطفال المشركين من يمت منهم صغيراً هل يدخلون الجنة أو النار ؟ قال (الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم)[3] .

ولقد أخبر الله بسابق علمه نبيه نوحاً قائلاً له ﴿ **وأوحىَ إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد ءامن** ﴾[4] فلما علم نوح بذلك دعا ربه فقال ﴿ **رب لا تذر على الأرضِ من الكافرين ديّارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا** ﴾[5] فأهلك الله القوم جميعاً حتى الأطفال والرُضّع لعلمه بأنهم لو تُركوا لصاروا كفاراً .

والغلام الذي قتله الخضر عليه السلام بأمر من ربه عَلِمَ الله أنه لو كبر لأرهق أبويه طغياناً وكفراً فأراد الله أن يبدلهما من هو خيراً منه .

مادام أن العدل متحقق بالنسبة لأهل النار دون دنيا ولا حساب ولا صحائف أعمال ولا ميزان فما فائدة تركهم في الدنيا لارتكاب المعاصي وما فائدة صحائف الأعمال والميزان ؟

إنها بالطبع لإقامة الحجة على العاصي حتى لا يجادل ويقول بأنه لو تُرك في الدنيا ما ارتكب هذه المعاصي أفيعذب على شيء لم يفعله ؟ أو يدَّعي أنه لو وزنت حسناته لفاقت سيئاته .

رابعاً:

مادام أن كلاً من الميزان وصحائف الأعمال ذكر مستقل عن الآخر وكلاهما

---

(١) رواه الإمام مسلم
(٢) رواه الإمام مسلم
(٣) رواه الإمام مسلم
(٤) آية ٣٦ هود
(٥) آيتي ٢٦ ، ٢٧ نوح

يتحقق معه إظهار العدل للعاصي فهذا دليل على أن لكلٍ منهما فائدة ووظيفة تميزه عن الآخر .

أرى أن الكتاب أو صحيفة الأعمال يسجل فيه ثلاثة أشياء :-

أ - حصر تفصيلي دقيق بالحسنات والسيئات التي اكتسابها الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته الدنيا والدليل قول النبي ﷺ (من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك)[1] .

ب - حصر تفصيلي دقيق بأعمال الجوارح من أقوال وأفعال التي عملها الإنسان لجلب تلك الحسنات والسيئات والدليل قول الله تعالى ﴿ **ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[3] .

جـ - بالإضافة إلي حصر وتدوين جميع الأقوال حتى ما يتلفظ به الإنسان في السر والنجوى في الخلوة وبصوت خافت فإن الكتاب يتضمن أيضاً ما أسره العبد في صدره وما أخفاه في نفسه وما أضمره وأكنه في قلبه من الخير أو الشر ومن المعتقدات والنوايا الطيبة أو الخبيثة مما لا يعلمه إلا الله أطلع الله الملائكة الكتبة عليه فكتبوه يقول تعالى ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾[4] ، ويقول تعالى ﴿ **يوم تبلى السرائر** ﴾[5] ، والإنسان إذا هم بقلبه بالشيء ولم يعمله وجد هذا الهم مدوناً بصحيفة أعماله فالصحيفة لا تقتصر

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) آية ٤٩ الكهف
(٣) آية ١٨ ق
(٤) آية ٨٠ الزخرف
(٥) آية ٩ الطارق

على أعمال الجوارح فقط بلى على أعمال القلوب والسرائر أيضاً ففي الحديث (من هم بحسنة فلم يعلمها كتبت له حسنة) وفيه أيضاً (من هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة) [1] .

ثم توزع الحسنات والسيئات على الأعمال فيكتب في الصحيفة قرين كل عمل صالح حسنة ثم يكتب قرين هذه الحسنة مضاعفاتها فتكتب بعشر حسنات إلى سبعمائة ضعف أو يزيد بحسب نوع العمل كالإنفاق في سبيل الله وبحسب درجة الإخلاص لله والتعرض لنفحات الله في الأماكن والأوقات المفضلة التي يتضاعف فيها الأجر والحسنات على الأعمال الصالحة قال تعالى ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ [2] ، ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ [3] وفي الحديث (وإن همَّ بحسنة فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة) [4] .

كما يكتب قرين كل عمل غير صالح سيئة ثم يكتب قرين هذه السيئة سيئة واحدة يقول تعالى ﴿ **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها** ﴾ وفي الحديث (وإن همَّ بسيئة فعملها كتبها الله سيئة واحدة) [5] ، إلا أن هذه السيئة الواحدة قد تتضاعف لحرمة الزمان والمكان كالإلحاد والظلم وارتكاب المعاصي والكبائر في الحرم المكي وفي الأشهر الحرم وقد تستبدل السيئة بحسنة إن تاب منها العبد وقبل الله توبته يقول تعالى ﴿ **إلا من تاب وءامن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [6] .

إذا استعرض العبد صحيفة أعماله المدون بها الحصر العددي لسيئاته التي لم تغفر له في الدنيا ولحسناته بعد مضاعفتها إن وجد إجمالي عدد حسناته يفوق

---

(١) رواه البخاري ومسلم
(٢) آية ٢٦١ البقرة
(٣) آية ١٦٠ الأنعام
(٤) رواه البخاري ومسلم
(٥) رواه البخاري ومسلم
(٦) آية ٧٠ الفرقان

إجمالي عدد سيئاته فرح واستبشر وإن وجد إجمالى عدد سيئاته يفوق إجمالي عدد حسناته حزن واغتم .

ولكن هذا الحصر العددي ليس كافياً لتحديد المصير المبدئي للعبد المؤمن إن كان سيدخل الجنة منذ البداية أم سيدخل النار أولاً ثم يدخل الجنة بعد ذلك لأن هذا المصير المبدئي يتحدد بالميزان يقول تعالى ﴿ **والوزن يومئذٍ الحق** ﴾ [1] إن ثقلت موازين حسناته عن موازين سيئاته دخل الجنة منذ البداية خالداً فيها ، وإن خفت موازين حسناته عن موازين سيئاته دخل النار منذ البداية إلا أن يعفو الله عنه ثم يدخل الجنة بعد ذلك .

والسبب في أن الميزان هو الذي يحدد المصير المبدئي للعبد المؤمن وليس الكتاب أن كل عمل صالح مدون في الكتاب سواء كان فعلاً أو قولاً أونية خيّرة يكتب أمامه أنه حسنة وهذه الحسنة تُضاعف كما ذكرنا إلى عشر مرات أو سبعمائة مرة أو يزيد ولكن قدر هذه الحسنة وثقلها يختلف باختلاف الفعل فليست الصلاة أو الصيام أو الحج أو الزكاة أو الجهاد كإماطة الأذى عن الطريق وليست الفرائض كالنوافل فالفرائض قدر حسناتها أعظم وهكذا الأقوال أو النوايا الطيبة تختلف فيما بينها .

وأيضاً كل عمل سيء مدون في الكتاب سواء كان فعلاً أو قولاً أو نية سيئة يكتب أمامه أنه سيئة ولكن قدر هذه السيئة يختلف باختلاف الفعل فليس القتل والزنا والسرقة كصغائر الذنوب وأيضاً كلاً من الأقوال السيئة والنوايا الخبيثة تتفاوت في قدر سيئاتها .

إذن فصحائف الأعمال بها حصر بأعداد الحسنات والسيئات أما الميزان فهو الذي يحدد قدر وأوزان هذه الحسنات و السيئات ويتحدد على أساسه مصيره

---

(١) آية ٨ الأعراف

المبدئي إلى الجنة أم إلي النار فقد يكون إجمالي عدد حسناته أكثر من إجمالي عدد سيئاته ولكن قدر سيئاته عظيم ، وقد يحدث العكس ، وقد يختم حياته وحسناته الكثيرة بسيئة عظيمة من أعمال أهل النار تغضب الله فيخف بسببها ميزان حسناته عن سيئاته ، وقد يختم حياته وسيئاته الكثيرة بحسنة عظيمة من أعمال أهل الجنة ترضي الله فيثقل بسببها ميزان حسناته عن سيئاته فلقد حدد الله لكل عمل قدره من الخير أو الشر وفقاً لدرجة محبة الله أو بغضه لهذا العمل يقول تعالى ﴿ **وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم** ﴾ (١) ، وفي الحديث القدسي (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبُ إليَّ مما افترضته عليه) (٢) ، وفي الحديث (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) (٣) فإن مقدار ثقل الأعمال الصالحة في ميزان الحسنات يتحدد وفقاً لدرجة محبة الله لهذه الأعمال .

وبرغم أن كتاب الأعمال ليس هو الذي يحدد المصير المبدئى للعبد إلا أن العبد الذي كتب الله له السعادة وتناول كتاب أعماله بيمينه يراه مكتوباً فيه أنه مؤمن بالله وباليوم الآخر وهذا في حد ذاته يجعله يطير فرحاً ويقول كما ذكر الله ﴿ **هآؤم اقرءوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاقٍ حسابيه** ﴾ (٤) لأنه يعلم أنه سيكون من أهل الجنة عاجلاً أو آجلاً ولن يخلد في النار ، ثم بعد أن يفحص كتابه إن وجد أن حسناته أكثر من سيئاته تفاءل واستبشر وغلب على ظنه أنه سيدخل الجنة من البداية وغالباً ما يكون توقعه صحيحاً ، وإن وجد سيئاته أكثر من حسناته حزن خشية أن يخف ميزان حسناته عن سيئاته فيدخل النار من البداية ولكنه لم يفقد الأمل .

إذن فالكتاب بالنسبة للمؤمن يحدد مصيره النهائى ولكنه لا يحدد مصيره المبدئى ، أما العبد الكافر فإن الكتاب يحدد مصيره النهائى والمبدئى على حد

---

(١) آية ١٥ النور (٢) رواه البخاري (٣) رواه البخاري ومسلم (٤)آيتي ١٩ ، ٢٠ الحاقة

السواء وذلك لأنه حينما يستلم كتابه بشماله أو من وراء ظهره ويقرأ فيه أنه كافر بالله وباليوم الآخر حينئذٍ يكون قد تيقن من دخول النار ويئس من رحمة الله وعلم أن ما في صحيفته من حسنات لن تشفع له في دخول الجنة وبذلك يكون الميزان بالنسبة للكافر ليس لتحديد مصيره المبدئى إن كان سيدخل الجنة أم سيدخل النار وإنما لتحديد درجته في النار يقول تعالى عن الكفار ﴿ **ولكلٍ درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾ [1] فلا يستوي أئمة الكفر كابليس وفرعون وهامان وأبو جهل مع الكافر العادي لأنهم يتحملون وزر كفرهم وكفر من أضلوهم ، كما لايستوي الكافر الشرير الذي يفسد في الأرض ويقتل الأبرياء وينتهك الحرمات مع الكافر الذي يسالم الناس ويحسن إليهم في الأقوال والأفعال .

مرحلة العرض والحساب :

هذه هي المرحلة التي تلي استلام العباد لصحائف أعمالهم يقول تعالى ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً** ﴾ [2] ويقول ﴿ **يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية** ﴾ [3] ويقول عليه الصلاة والسلام (ما منكم من أحدٍ إلا ويكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان) [4] .

فأما بالنسبة للعبد المؤمن فإن الله يرخي عليه ستره حتى لا يطَّلِع أحد على سيئاته بصحيفة أعماله فيُفضح ثم يعاتبه على ذنوبه وسيئاته ويلهمه الله أن يقر ويعترف بذنبه ثم يغفر الله له ما شاء من هذه الذنوب كلها أو بعضها وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ [5] فما غفره الله من هذه الذنوب والسيئات يُمحى ولا يوضع في ميزان

---

(١) آية ١٩ الأحقاف
(٢) آيتي ٧ ، ٨ الإنشقاق
(٣) آية ١٨ الحاقة
(٤) رواه البخاري
(٥) آية ٤٨ النساء

سيئاته وهذا هو معنى قوله تعالى عن دعاء الملائكة ﴿ **ومن تقِ السيئات يومئذٍ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ [١] .

أما الكافر أو الفاسق الذي أراد الله أن يذيقه العذاب فإنه يحاسبه حساباً شديداً ويناقشه في كل صغيرة وكبيرة ويفضحه أمام الخلائق في هذا الموقف العظيم فيطَّلعون على صحيفة أعماله ومابها من سيئات ومعاصي فيسبونه ويلعنونه يقول تعالى ﴿ **أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ [٢] ويقول﴿ **عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ [٣] ويواجهه الله بما دون عليه في كتابه مما ارتكبه من المعاصي والآثام فلا يقر بذنبه بل ينكر ويجادل فيشهد الله عليه كل شيء اطَّلع على معاصيه فإذا أنكر ختم الله علي فيه وأنطق أعضاء جسده وجوارحه بما ارتكبه بها من الذنوب والآثام .

والله ليس كمثله شيء فكما أنه يسمع الناس ويراهم في وقتٍ واحد فإنه أيضاً يكلمهم ويحاسبهم جميعاً في وقتٍ واحد ولذلك فإنه وصف نفسه بأنه أسرع الحاسبين .

مرحلة الميزان :-

وهي المرحلة التي تلي العرض أو الحساب ، وهذا الميزان ليس مثل أي ميزان مادي من موازين الدنيا لا في شكله ولا في خلقته ، إن كفة الحسنات به خلقت من النور وكفة السيئات به خلقت من الظلام [٤] والكفة منه تَسعِ السموات والأرض جميعاً ففي الحديث برواية البخاري (لو أن السموات السبع والأراضين السبع وضعت في كفة ووضعت لا إله إلا الله في كفة رجحت بهن لا إله إلا الله) وبرواية النسائي (لو أن السموات السبع والأراضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة

(١) آية ٩ غافر (٢) آية ١٥٩ البقرة (٣) آية ١٦١ البقرة (٤) التذكرة ٣٦٨

مــالت بهن لا إله إلا الله) ، وبرواية ابن جــرير (والذي نفــسي بيــده لو جيء بالسـموات والأرضين ومـا فـيهن ومـا بينهن ومـا تحتـهن فـوضعـن في كفة الميـزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى لرجحت بهن)

وهذا الميزان هو مضرب المثل في الدقة والقسط ، توزن فـيـه موازين العـباد جميعـهم في وقت واحد كما أنهم يحاسبون جميعاً في وقت واحد وربما يكون لكل عبد كفتين كفة لحسناته وكفة لسيئاته ، يقول تعالى ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيـامـة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مـثقـال حبةٍ مـن خردلٍ أتينا بهـا وكـفى بنا حاسـبين** ﴾ [١]، ويقـول تعـالى ﴿ **إن الله لا يظلم مـثـقـال ذرة** ﴾ [٢] أي لا يظلم الإنسـان قـدر وزن ذرة من الخـيـر وفي هذا دلالة على أن دقـة الميـزان قـد بلغت منتـهاها يـقول تعـالـى ﴿ **فـمن يعـمل مثقـال ذرة خيـراً يره ، ومن يعـمل مثـقال ذرة شراً يره** ﴾ [٣] .

وأهم ما يميز هذا الميزان الإلهي عن موازين الدنيا أن موازين الدنيا تزن أثقال المواد والأجسام تبعاً لقوة الجاذبية الأرضيـة لهذه الأجسام فيزيد الوزن أو الثـقل بزيادة قـوة الجاذبيـة ويقل بانخفاض قـوة الجاذبيـة فإذا ارتفعنا خارج نطاق الجاذبية الأرضية انعدم الوزن فنجد الأجسام الكبيرة مثل الأجسام الصغيرة جميعها لا وزن لها .

أما الميزان الإلهي فإنه لا يزن إلا الخير والشر فـقط وما عدا ذلك فـهو لا يوزن ، إنه ميزان حساس يتحسس الخير والشر ويستـشعرهما فيبحث عنهما في الأشياء الموضوعة عليه ويستـكشفهما ومن ثم يزنهما ولا يزن شيئاً غيرهما .

اما الاشياء الموضوعة على هذا الميزان فهي :-

١ - ورد في بعض الأحاديث النبوية أن التي توزن هي سجلات أعمال العبد أو كتابه أو صحائف أعماله والثلاثة بمعنى واحد لشيء واحد ومن أمثلتها حديث

---

(١) آية ٤٧ الأنبياء . (٢) آية ٤٠ النساء . (٣) آيتي ٧ ، ٨ الزلزلة

البطاقة يقول عليه الصلاة والسلام (فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)[1] .

٢ - وورد أن التي توزن هي الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها أجساماً روى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنه تماماً كما يجسد الله الموت في صورة كبش أملح يذبح على الصراط بين الجنة والنار ، وكما يجسد الله عمل ابن آدم حيث يأتيه في قبره في صورة شاب جميل أو قبيح ، وكما يجسد الله سورتي البقرة وآل عمران فيأتيان كأنهما غمامتان تحاجان عن صاحبهما ، ومن أمثلة ما ورد في وزن الأعمال حديث (المفلس من أمتي) الذي أخرجه الإمام مسلم .

٣ - وورد في أحاديث أخرى أن التي توزن هي الحسنات والسيئات ومن أمثلتها الحديث الذي نصه : (توضع الموازين يوم القيامة فتوزن السيئات والحسنات فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابه دخل الجنة ، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابه دخل النار ، ومن استوت حسناته وسيئاته فأولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون)[2]، والرجاحة والمساواة ليست للأعداد بل للأوزان .

ولا تعارض بين هذه الأنواع الثلاثة من الأحاديث وذلك لأن سجلات الأعمال إذا وضعت على الميزان فإنه لا يزن الأوراق المادية ولكنه يزن ما بها من أعمال ، ثم يزن ما في تلك الأعمال من حسنات وسيئات ، ثم يزن ما في هذه الحسنات والسيئات من الخير والشر يقول تعالى ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ [3] فهذا الخير أو الشر يراه في صحيفة أعماله ويراه في ميزانه .

ومن المعلوم بديهة أن قدر الخير المستمد من الحسنات المأخوذة من الصلاة

---

(١) رواه الترمذي (٢) ذكره خيثمة بن سليمان في مسنده (٣) آيتي ٧ ، ٨ الزلزلة

يختلف عن قدر الخير المستمد من الحسنات المأخوذة من سائر الأعمال الصالحة ، وأيضاً فإن قدر الشر المستمد من السيئات المأخوذة من القتل يختلف عن قدر الشر المستمد من السيئات المأخوذة من سائر الأعمال غير الصالحة فقد حدد الله عز وجل لكل عمل من الأعمال الوزن المحدد له من الخير أو الشر .

٤ - وورد أيضاً أن صاحب العمل (أي الإنسان) يوضع على الميزان فيوزن ، والذي يوزن في الإنسان ليس لحمه وشحمه ودمه وعظامه وإنما قدر الإيمان أو الكفر الذي في قلبه وقدر الخير أو الشر الذي فعله كل عضو من أعضاء جسده ففي الحديث (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة إقرأوا إن شئتم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا) [١] ، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأبو يعلي والبزار والطبراني أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه بشأن الصحابي عبد الله بن مسعود (أتضحكون من دقة ساقيه والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد) فكم جاهد هذان الساقان في سبيل الله وكم سعيا إلى الخير وكم انتصبا في صلاة الليل والصلوات المكتوبة ، وما أشبه ذلك بحديث شق صدر النبي ﷺ فقد جاء فيه (قال أحد الملكين لصاحبه زنه « أي زن محمد ﷺ »بعشرة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ، ثم قال زنه بألف من أمته فوزنني بهم فوزنتهم ، فقال دعه عنك فوالله لو وزنته بأمته لوزنها) [٢] فالشيء الذي تم وزنه ليس بالطبع اللحم والشحم والدم والعظم وإنما الإيمان فإن قوة الإيمان واليقين في قلبه تفوق إجمالي ما في قلوب جميع أمته مجتمعين .

ومن الأدلة على أن الميزان إذا وضع عليه الرجل وزن إيمانه ما جاء في الصحيحين أن الله عز وجل إذا أراد أن يخرج العصاة الموحدين من النار قال للشفعاء أنظروا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من إيمان فأخرجوه من

---

(١) رواه البخاري

(٢) انظر سيرة ابن هشام والبداية والنهاية لابن كثير

النار فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقول لهم ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً فإذا لم يتبق إلا شفاعة أرحم الراحمين قبض الله بيده قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط ، فكيف يعلم العباد الصالحون الشفعاء بوزن الإيمان في قلوب هؤلاء العصاة الموحدين ليخرجونهم من النار بإذن ربهم إلا إذا كان الميزان قد حدد هذا الوزن سلفاً قبل دخولهم إلي النار .

ولا يقتصر دور الميزان على ترجيح إحدى الكفتين على الكفة الأخرى لتحديد مصير العبد إلى الجنة أو إلى النار ولكن الميزان يُظهر مقدار هذا الترجيح بدقة متناهية لتحديد درجة العبد في الجنة أو درجته في النار .

والكافر قد أحبط الله عمله وجعله هباءً منثوراً فلا تنفعه أعماله الصالحة ولا حسناته في دخول الجنة يقول تعالى ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عملٍ فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ [1] وإنما تنفعه أعماله الصالحة وحسناته في تخفيف العذاب عنه في نار جهنم فلا يستوي الكافر القاتل المفسد مع الكافر المسالم المصلح ولذلك فإن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة أبو طالب عم النبي ﷺ لأنه كان يدافع عنه وينصره .

ومن المعلوم أن الميزان لا توزن فيه السيئات التي غفرها الله لعبده التائب في الدنيا ولا السيئات التي غفرها الله لعبده عند العرض عليه بعد استلامه كتابه بيمينه .

مرحلة ما بعد الميزان :-

إن العبد المؤمن إن رجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة وإن تساوت حسناته مع سيئاته كان من أصحاب الأعراف ودخل الجنة بعد طول انتظار ، وإن رجحت

---

(١) آية ٢٣ الفرقان

سيئاته على حسناته فهو في مشيئة الله إما أن يأمر به إلى النار وإما أن يرحمه ويعفو عنه إن علم أنه وإن قصرت حسناته عن سيئاته إلا أنه يحمل قلباً سليماً يمتلىء بالإيمان الخالي من الشك بأن الله إله واحد وباليوم الآخر ويمتلىء بمحبة الله ورسوله ومحبة الخير للعباد فليس في قلبه حقد ولا حسد ولا بغضاء ولا نفاق ولا رياء ، ومن نماذج هؤلاء في أرض المحشر رجل مسلم نشر الله عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل مد البصر جميع ما فيها سيئات فقال الله له أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتي الحافظون ؟ أفلك عذر أو حسنة ؟ فيقول لا يارب ولكن الله علم صدق عقيدة التوحيد في قلبه وقوة إيمانه ومحبته لله ورسوله فأخرج الله له بطاقة مكتوباً فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فوضعت السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فدخل الجنة [1] .

إن الإيمان والعمل الصالح كلاهما مطلوب ولكن الإيمان أثقل في الميزان من العمل الصالح .

ومن النماذج أيضاً هذا التاجر الذي كان يقول لغلمانه تجاوزوا عن المعسر لعل الله أن يتجاوز عني فلقى الله وقد قصرت حسناته عن سيئاته فتجاوز الله عنه لحسن ظنه بربه ولأنه كان رحيماً شفوقاً على عباد الله [2] .

ومن النماذج أيضاً هذا الرجل الكريم الذي رأى في أرض المحشر رجلاً تنقصه حسنة واحدة ليثقل بها ميزانه بعد أن تساوت كفتيه فأخذ يبحث عنها ويطلبها من أقرب الناس إليه ومن كل مَنْ حوله فلا أحد يعطيه شيئاً فقال له يا أخي خذ هذه الحسنة ليس عندي غيرها وما أظنها تغني عني شيئاً فادخل بها الجنة فإنني داخل النار داخل النار فقال الله له كرمي أوسع من كرمك خذ بيدِ أخيك فادخلا الجنة [3] . لقد أراد الله أن يكافئه على كرمه وقلبه السليم المحب لأخيه المسلم .

ومن النماذج أيضاً ذلك الرجل الذي تساوت كفتا ميزانه فيأتي المَلَك فيضع

---

(١) رواه الترمذي (٢) رواه مسلم (٣) كشف علوم الآخرة لأبي حامد الغزالي

في كفة سيئاته كلمة (أف) قالها لأبيه فتخف حسناته وتثقل سيئاته فيجره الملك إلى النار ويجر أباه أيضاً إلى النار لأنه كان عاصياً فيقول ياربي إذا كان لابد لي من النار فأنقذ أبي من النار وضعّف عليَّ العذاب لأنني كنت عاقاً له فيضحك الله تعالى ويقول عققته في الدنيا وبررته في الآخرة خذ بيد أبيك وادخلا الجنة [١].

ومن النماذج أيضاً أن المظلوم يقول لله خذ لي مظلمتي من الظالم فيأخذ من حسناته حتى إذا فنيت حسناته ولم تنته مظلمته قال ياربي خذ من سيئاتي فاطرحها عليه فيقول الله للمظلوم وقد أراد بالظالم خيراً وعلم أن قلبه به الكثير من الإيمان أنظر إلي هذا القصر في الجنة -وقد رفعه الله إليه ليراه - فيقول يارب ما أجمله لمن هذا القصر ؟ فيقول لمن دفع الثمن قال فمن يقدر عى ذلك ؟ قال أنت تقدر على ذلك بعفوك عن أخيك فيقول ياربي قد عفوت عنه فيقول الله له خذ بيد أخيك وادخلا الجنة [٢] فيصلح الله بهذه الوسيلة بين المؤمنين الذين علم أن في قلوبهم إيماناً وقد جاءوا ربهم بقلب سليم .

جميع هذه النماذج السابقة أصحابها خفت موازين حسناتهم عن موازين سيئاتهم أو تلاشت حسناتهم وبقيت سيئاتهم ولكنهم جميعاً لو وضع كلُ إنسان منهم على الميزان لفاق وزن الإيمان والخير في قلبه وزن ما جاء به من السيئات ولذلك نجاهم الله من النار وأدخلهم الجنة برحمته .

ومن هؤلاء من يقبل الله فيهم شفاعة الشافعين فيشفعون لهم فلا يدخلون النار .

نستنتج من ذلك أن الله يغفر لعبده المؤمن مرتين إن شاء ، مرة في الدنيا بسبب توبته النصوحة أو حجته المبرورة أو إسلامه أو أعماله الصالحة ، ومرة عند العرض عليه بعد استلامه كتابه بيمينه ، وما غفره الله لا يوزن ، ثم يعفو عنه في

---

(١) كشف علوم الآخرة لأبي حامد الغزالي (٢) رواه الحاكم

إحدى مرتين إن شاء ، مرة بعد الميزان إذا خفت حسناته وثقلت سيئاته ، فإن لم يعفو عنه في هذه المرة عفا عنه بعد دخوله النار فأخرجه منها وأدخله الجنة ، ولا يتبقى في النار إلا الكفار والمنافقين خالدين مخلدين فيها أبد الآبدين .

نعود إلى قول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي وهل يأتي القاضي بميزان مادي ليحكم في القضايا ؟ فنقول بأن القاضي في دنيانا لا يحتاج إلي ميزان لأنه يحكم في قضية واحدة هل المتهم فعل حسنة أو فعل سيئة ؟ أما الله عز وجل فإنه يحكم على الإنسان في جميع قضايا حياته بعضها حسنات وبعضها سيئات فيحتاج الأمر إلى وزنهما ليقتنع العبد بعينه أنه لم يظلم فهو أشبه بالمقاصة بالنسبة للمعاملات البنكية الداخلة والخارجة ؟ أو الايرادات والمصروفات .

وإذا كان القاضي يحكم في القضايا بالظن والتخمين وفق ما يترائى له أنه الحق والعدل ولا يلجأ إلي ميزان دقيق يزن به الخير والشر فهذا لعجز في قدرات الإنسان ولو استطاع لفعل ، لا شك أن طريقة الميزان هي الأكثر دقة وتطوراً وإظهاراً للعدل ولنضرب مثلاً علي ذلك ، لو أن عندنا قائمة طويلة من الأرقام الكبيرة كل رقم به أعداد صحيحة وكسور عشرية وأردنا جمع هذه الأرقام فقام رجل فلم يجمعها ولكنه نظر إليها نظرة شاملة ثم ذكر رقماً تقريبياً لناتج الجمع بالظن والتخمين ، ثم قام رجل ثاني فاكتفى بجمع الأعداد الصحيحة فقط وترك الكسور ، ثم قام رجل ثالث فجمع الأرقام كاملة بما فيها من أعداد صحيحة وكسور فأيهم أدق وأقرب إلي العدل ؟ وخاصة إذا ترتب علي هذه الفروقات الطفيفة تحديد مصير العبد إلى الجنة أو إلى النار أو تحديد درجته في الجنة أو في النار .

خلاصة ما سبق ذكره :-

١ - للكتاب أو صحائف الأعمال ثلاث فوائد :-

أ - يحدد المصير النهائى للعبد المؤمن وهو الجنة .

ب - يحدد المصير المبدئى والنهائى للعبد الكافر وهو النار فيدخلها ولا يخرج منها أبداً .

جـ - يشعر الإنسان بأن الله كان مطلعاً على أقواله وأفعاله وخفايا نفسه في الدنيا ولا يغيب عن علمه شيء وبأن ملائكته كانوا يسجلون عليه كل شيء .

٢ - للميزان أربع فوائد هي :-

أ - يحدد لمن ثقلت موازين حسناته مصيره المبدئي والنهائى وهو الجنة فيدخلها ولا يخرج منها أبداً .

ب - يحدد لمن خفت موازين حسناته من المؤمنين مصيره المبدئى وهو النار إلا أن يعفو الله عنه .

جـ - يحدد للمؤمن درجته في الجنة بقدر ما تثقل به موازينه ويحدد للكافر درجته من النار بقدر ما تخف به موازينه .

د - إظهار العدل الإلهي أمام الإنسان بصورة محسوسة يراها بعينه ليتأكد يقيناً أنه لم يُظلم .

٣ - للعرض أو الحساب (وهو الذي يلي استلام الكتاب وقبل الميزان) ثلاث فوائد :-

أ - عتاب المؤمن وتوبيخ الكافر والفاسق .

ب - جعل العباد يقرون ويعترفون بما في صحائف أعمالهم من المعاصي حتى إذا عذبوا لا يكن لديهم أدنى إحساس بالظلم فأما المؤمن فيلهمه الله الإقرار والإعتراف وأما الكافر فيشهد الله عليه كل شيء حتى أعضاءه وجوارحه فلا يجد مفراً من الإقرار والإعتراف .

جـ - ثمرة العرض للمؤمن أن يستره الله فلا يفضحه ويغفر له ذنوبه كلها أو بعضها فلا توضع في ميزان سيئاته ، أما ثمرة مناقشة الحساب العسير على الكافر أوالفاسق فهي أن يفضحه الله ويخزيه ويُقذف باللعنات ويؤمر به إلى النار فتكون درجته ومنزلته فيها بقدر ما تخف به موازينه .

الأعمال الصالحة وسيلة وليست غاية :-

إن الإنسان يجب ألا يغتر بكثرة أعماله الصالحة فيظن أنه قد ضمن بذلك الفوز بالجنة والنجاة من النار لأن مشيئة الله لا تحكمها أعمال العباد فالله يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ويرحم من يشاء فهو الخالق والمالك لكل شيء الخلق خلقه والجنة جنته والنار ناره والأمر كله لله ، وهذه المشيئة ليست عشوائية وإنما هي صادرة من إله حكيم عليم خبير لا يظلم أحداً من خلقه من أجل ذلك فإنه ينبغي على الإنسان ألا يغتر بكثرة أعماله الصالحة لأنه لا يدري هل قبلها الله منه أم ردها عليه ويوم القيامة يتكشف له ذلك فإن كان الله قبلها وضعت في كفة حسناته وإن كان الله ردها عليه لم توزن وما ذاك إلا لخلل في إيمانه فالله عز وجل لا يقبل الأعمال الصالحة من الكافر والمنافق والمرائى والمنَّان لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال الصالحة .

من أجل ذلك فإن الإنسان يجب أن يكون غايته رضا الله عنه ، ووسيلته لتحقيق ذلك هي التقرب إلى الله بالإيمان والعمل الصالح معاً وليس مجرد الإكثار من الأعمال الصالحة لتحقيق منفعة دنيوية دون أن يكون الله في عقله وقلبه ووجدانه .

إذن فالأعمال الصالحة مع الإيمان ليست هي غاية المؤمن وإنما هي وسيلة لتحقيق غايته وهي إرضاء الله فإذا رضى الله عن عبده أدخله الجنة وإذا سخط عليه أدخله النار ، يقول تعالى ﴿ **ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى** ﴾[1] .

إن العبد إذا جاء يوم القيامة بإيمان فقط بلا حسنات فهو في مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له وقد ذكرنا نماذج من هذا الغفران جاءت بها الأحاديث النبوية الشريفة منها حديث البطاقة ، وحديث التاجر الذي لم يعمل خيراً قط غير

---

(١) آية ٨١ طه

أنه كان رحيماً يتجاوز عن المعسر ، وحديث الرجل الذي كان محباً لأخيه المسلم فأعطاه الحسنة الوحيدة التي يملكها ، والنماذج والأحاديث على ذلك كثيرة ومتعددة يتعذر حصرها .

أما إذا جاء العبد بالعمل الصالح خالياً من الإيمان أو مقترناً بعقيدة فاسدة فإن الله لا يقبل منه عمله ولا يترتب على هذا العمل زيادة في حسناته ولا ثقلاً في ميزانه يقول تعالى ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله** ﴾ [1] ، ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ [2] ، ﴿ **ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾[3] ، ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾ [4] .

أما إذا جاء العبد بالإيمان والعمل الصالح فإن الله يتقبل منه عمله قال تعالى ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ [5] ويتجاوز عن سيئاته ويدخله الجنة وهذا هو ثمرة رضا الله عنه قال تعالى ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون** ﴾ [6] .

إن المشيئة الإلهية بإدخال العبد الجنة لا تحكمها الأعمال الصالحة لأنها غير ملزمة للمشيئة الإلهية ولكن هذه المشيئة مرتبطة أشد الإرتباط برضا الله التي هي غاية كل مؤمن فمن رضي الله عنه أدخله الجنة ومن سخط الله عليه أدخله النار يقول تعالى ﴿ **وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ [7] ويقول عن أهل الجنة ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ [8] ويزف إلى أهل الجنة بشرى هي أعظم عندهم من نعيم الجنة يقول لهم ربهم (أحل عليكم رضواني فلا أسخط

---

(١) آية ٥٤ التوبة
(٢) آية ٢٦٤ البقرة
(٣) آية ٦٥ الزمر
(٤) آية ٢٣ الفرقان
(٥) آية ٢٧ المائدة
(٦) آية ١٦ الأحقاف
(٧) آية ٢٠ الحديد
(٨) آية ٨ البينة

عليكم بعده أبداً)[1] ومصداق ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ **ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر** ﴾ [2] أي أكبر من نعيم الجنة ، أما عاقبة سخط الله وغضبه فهي إحباط العمل ودخول النار والعياذ بالله يقول تعالى ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾[3] . ﴿ **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ [4] ، ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون** ﴾ [5] ، ﴿ **فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير** ﴾ [6] ، ﴿ **ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى** ﴾ [7] .

والدليل على صحة ما نقول أن العبد قد يعمل العمر كله صالحاً ثم يختم حياته بمعصية كبيرة أو يقول كلمة عظيمة تغضب الله فيلقى ربه وهو عليه غضبان فتكون في ميزان سيئاته أثقل من سائر أعماله الصالحة فيدخل النار لأن قدر الثقل يتحدد وفقاً لدرجة رضا الله أو بغضه لهذا العمل يقول تعالى ﴿ **وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم** ﴾ [8] من أجل ذلك فإن المؤمن ينبغي ألا يكون مناناً يغتر بكثرة أعماله الصالحة ويعتقد أنه ناجٍ لا محالة يقول تعالى لنبيه الكريم ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ [9] وإنما ينبغي عليه أن يستقل أعماله الصالحة ويجتهد في الإستزادة منها والمداومة عليها حتى يأتيه الموت وهو على ذلك فيختم له بخير ويلقى الله وهو عنه راض .

وقد يعمل العبد العمر كله بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار وما ذاك إلا لأنه قد يكون مرائياً أو مناناً أو حاسداً أو حقوداً أو كافراً أو منافقاً أو مبتدعاً فلقى الله وهو عنه غضبان فأدخله النار .

وفي المقابل فان العبد قد يعمل العمر كله أعمالاً سيئة ثم يختم حياته بكلمة

---

(١) رواه مسلم
(٢) آية ٧٢ التوبة
(٣) آية ٢٨ محمد
(٤) آية ١٦٢ آل عمران
(٥) آية ٨٠ المائدة
(٦) آية ١٦ الأنفال
(٧) آية ٨١ طه
(٨) آية ١٥ النور
(٩) آية ٦ المدثر

عظيمة ترضي الله أو بعملٍ جليل أو طاعة كبيرة ترضي الله مثل الإيمان بعد الكفر فيمحي ما قبله أو التوبة النصوحة أو الحج المبرور أو الجهاد والاستشهاد في سبيل الله أو قول لا إله إلا الله يختم العبد بها حياته أو الرحمة بالإنسان أو الحيوان كرحمة المرأة العاهرة بالكلب الذي كان يلهث من شدة العطش فسقته الماء من البئر ، أياً كان العمل الصالح الذي ختم العبد المذنب به حياته إن كان هذا العمل له قدر كبير عند الله فإن العيد يلقى ربه وهو عنه راض فيفوق ثقل هذا العمل في ميزان حسناته أثقال جميع أعماله السيئة في كفة سيئاته فيدخل الجنة .

إن العبد قد يدخل الجنة أو النار لأهون الأسباب ، كلمة واحدة يقولها لا يلقي لها بالاً ترضي الله يرفعه الله بها درجات عليا في الجنة أو تسخط الله عنه يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً فلا يحقرن العبد من الأعمال الصالحة أو الذنوب شيئاً فَرُبَّ كلمة أو فعله يكون فيها نجاته أو هلاكه وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول (الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك) [١] فليحرص العبد على ألا يغادر الدنيا إلا وربه عنه راض لأنه إن تركها على غير ذلك بُعث على ما مات عليه ولقى الله وهو عنه غضبان فإنما الأعمال بخواتيمها ، من أجل ذلك ينبغي على الإنسان ألا يغتر بكثرة أعماله الصالحة بل يتواضع بها لله قاصداً بها وجهه وألا يثق ولا يحسن الظن إلا في الله .

إن المؤمن إذا احتضر بُشر ببلوغ غايته وهي رضا الله عنه فوجبت له الجنة يقوله له ملك الموت عند قبض روحه (يا أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى ربٍ راضٍ غير غضبان) وفي رواية (أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان) [٢] ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي** ﴾ [٣] .

والكافر إذا احتضر بُشر بسخط الله فوجبت له النار يقول له ملك

---

(١) رواه البخاري (٢) رواه الترمذي (٣) الآيات من ٢٧ حتى ٣٠ الفجر

الموت عند قبض روحه (يا أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط الله وعذابه) فالعذاب هو النتيجة الحتمية لسخط الله كما أن الجنة هي النتيجة الحتمية لرضا الله .

إن الوسيلة المضمونة للفوز برضا الله هو الإيمان مقترناً بالعمل الصالح وهناك ارتباط وثيق بينهما فإن المداومة على الطاعة والعمل الصالح يقوي ويزيد من إيمان العبد ويمنعه من النقصان فقول لا إله إلا الله وذكر الله عامة يجدد الإيمان ويطمئن القلوب ، والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي إذا أداها العبد على الوجه المطلوب من الخشوع والتدبر لآيات الله ، والزكاة تزكي النفوس وتطهرها من الشح وتحبب إليها البذل والعطاء وتشعرها بلذة إدخال السعادة في قلوب المحتاجين ، والصيام يزود النفوس بالتقوى والعفة والقناعة وقوة الإرادة ولذة الطاعة ، والحج المبرور يزود النفوس بالزهد والتقوى فيهجر ما كان عليه من المعاصي إلى الطاعات ، والجهاد في سبيل الله يجعل الإنسان أشد حرصاً على الموت والدار الآخرة من حرصه على الدنيا الفانية ويجعله شجاعاً في الحق لا يخاف الموت ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يطهران العبد من النفاق والمجاملة على حساب الدين وتكسبه حب الطاعة وكراهية المعصية وقوة الإرادة والشخصية الإيمانية والصدق والثبات على الحق وألا يخشى في الله لومة لائم ، وبر الوالدين وحسن المعاملة مع الناس بالأقوال والأفعال يملأن قلب العبد بالرحمة ويحب الناس لمحبتهم له .

مما سبق يتبين لنا أن الأعمال الصالحة برغم أنها صادرة من جوارح الإنسان إلا أن المداومة عليها وتأديتها على الوجه المطلوب تزيد من الإيمان الذي يسكن قلب العبد وتمنعه من النقصان ، وبدون هذه الأعمال الصالحة فإن الإيمان لا يزيد وقد يخبو وتنطفيء حرارته ويكون عرضه للتلاشي بفعل مؤثرات وإغراءات خارجية وحينئذٍ يخشى على صاحبه من التردي والهلاك .

إذن فالعمل الصالح من لوازم الإيمان وعلامة ودليل على صدق إيمان العبد ففي الحديث (الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل) إذن فالعمل الصالح دليل

على صدق الإيمان الذي يسكن القلب ، قال رسول الله ﷺ (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) ، وقال ﷺ (إن قوماً يقولون نحسن الظن بالله كذبوا فلو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) ، وفي رواية (إن قوماً يزعمون أنهم يحبون الله كذبوا فلو أحبوه لأطاعوه) ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾ (١) .

والإيمان نوعان : إيمان عام وهو الحد الأدنى من الإيمان لا يقبل الله أقل منه وهو العلم مع التصديق بأن الله إله واحد لا شريك له المستحق للعبادة دون سواه وبما أخبر به الله من ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولا يكون العبد مسلماً إلا إذا علم ذلك وصدَّقه قال تعالى ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾ (٢) وبناء على هذا النوع من الإيمان يكون كل مسلم مؤمناً وعليه يُفسر مخاطبة الله للمسلمين جميعاً من أتباع محمد ﷺ بقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين ءامنوا** ﴾ في فواتح الآيات القرآنية الكريمة .

أما النوع الثاني فهو الإيمان الخاص حيث يرتقي إيمان العبد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر من منزلة العلم والتصديق إلي منزله الاعتقاد اليقيني الراسخ في أعماق القلب لا يخالطه أدنى شك كما أنه يسمع ويرى وينطق لا يشك في ذلك ، وهذا الإيمان الراسخ من علامة صدقه ورسوخه أنه لابد أن يكون مصحوباً بالتقوى وبالأعمال الصالحة وبالتخلق بآداب الإسلام وتعاليمه والإقبال على طاعة الله والبعد عما حرمه الله ونهى عنه ، وهذا النوع هو المقصود بقوله تعالى ﴿ **قالت الأعراب ءامنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ (٣) وبقوله تعالى في الآية التي بعدها ﴿ **إنما المؤمنون الذين ءامنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ (٤) ، وهو الإيمان الذي عناه رسول الله ﷺ بقوله (لايسرق

(١) آية ٣١ آل عمران (٢) آية ١٣٦ النساء (٣) آية ١٤ الحجرات (٤) آية ١٥ الحجرات

السارق حين يسرق وهو مؤمن) ، وبقوله ﷺ (الإيمان ما وقر في القلب وصدَّقه العمل) أي الإيمان الكامل الراسخ ، وبقوله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه) أي لا يكمل إيمانه ببلوغه الإيمان الكامل الراسخ إلا بذلك ، ومثله قوله ﷺ (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) ، ومثله قوله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) ، وقوله ﷺ (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده وأهله والناس أجمعين) [1] .

بناء على هذا النوع الثاني من الإيمان لا يكون كل مسلم مؤمناً ، وعندما ذكرت مجيء العبد يوم القيامة بإيمان بلا عمل مستشهداً بالنماذج التي قصها علينا رسول الله ﷺ كنت أقصد النوع الأول من الإيمان ، أما النوع الثاني من الإيمان فإن صاحبه بلاشك يمتلك من الأعمال الصالحة والحسنات الكثير والكثير لأن ما في قلبه من إيمان راسخ لابد أن ينعكس أثره على جوارحه فتخشع فإذا خشع القلب خشعت الجوارح فامتنعت عن الشر وامتدت إلى الخير ، هؤلاء هم الراشدون الذين أحبوا الخير والفضيلة وكرهوا الشر والرذيلة واقتدى الناس بأقوالهم وأفعالهم في فعل الخيرات وترك المنكرات وقضاء حوائج الناس .

أهل الجنة يدخلونها برحمة الله وليس بأعمالهم :-

قد يلتبس الأمر على كثير من الناس نتيجة الفهم الخاطيء لمعاني بعض الآيات القرآنية فيعتقدون أن أهل الجنة يدخلونها مقابل ما قدموه من إيمان وعمل صالح وكأنهم يشبهون علاقة الإنسان بربه برجلٍ أسدى لرجلٍ آخر معروفاً أو قدم إليه

---

(١) مجموعة أحاديث رواها البخاري ومسلم

هدية فكافأه الأخير بأن قدم إليه هدية مثلها .

بالطبع هذا القياس خاطيء للأسباب الآتية :-

اولا:

إن الله غني عن العباد وأعمالهم لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين كما جاء عن الله تعالى في الحديث القدسي (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا) [١] .

ثانيـــا:

إن ما أعده الله في الجنة من النعيم المقيم الذي لا يخطر على قلب بشر يفوق بأضعاف لاحصر لها ما قدمه أهل الجنة من الإيمان والعمل الصالح فلو فرضنا أن رجلاً أهدى رجلاً خاتماً من حديد فقدم له الأخير كنزاً من الماس والذهب واللؤلؤ والياقوت فهل نقول بأن صاحب الخاتم مستحقاً للكنز مقابل خاتمه أم نقول بأن صاحب الكنز تفضل على صاحب الخاتم بأكثر مما يستحق ؟ يجوز القول بأن الكنز المقدم لصاحب الخاتم كان جزاء صنيعه أو أن إهداء صاحب الخاتم لخاتمه كان سبباً لحصوله على الكنز وكلا القولين صحيح ولكن لا نقول بأن الكنز مقابل الخاتم الحديدي وبالمثل يجوز القول بأن الجنة جزاء الإيمان والعمل الصالح أي دار الجزاء لمن آمن وعمل صالحاً كما ورد ذلك في القرآن الكريم أو أن الإيمان والعمل الصالح كانا سبباً في دخول الجنة ولكن لا ينبغي القول بأن الجنة وما يجده العبد فيها من النعيم مقابل ما قدمه من الإيمان والعمل الصالح والفرق واضح بين كلا التعبيرين .

---

(١) رواه مسلم

ثالثـاً:

إن الله هو الذي أمدنا بمقومات العمل الصالح فهو الذي أرشد العباد إلى معنى الإيمان والعمل الصالح وكيفية تنفيذه عن طريق الرسالات السماوية والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، كما أن ما يصدر منهم من الإيمان والعمل الصالح كان بإلهام الله ومشيئته وتوفيقه وتيسيره للأسباب والسُبل التي تمكنهم من تحقيق ذلك ، كما أنه خلق لهم الحياة والأجساد وأمدهم بالصحة والمال لكي يستعينوا بذلك كله على القيام بالأعمال الصالحة وصدق نبينا محمد ﷺ إذ يقول (لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا) فأي فضل للإنسان بعد ذلك يمن به على ربه ؟ إن الفضل كله لله .

رابـعـاً:

إن ماصدر عن العبد من الإيمان والأعمال الصالحة يفترض أنه مقابل ما أنعم الله به على عبده في الدنيا من الخَلْق والصحة والرزق على افتراض أن العبد استنفد هذه النعم جميعها في طاعة الله منذ ولادته وحتى مماته ولو أن ما يقدمه العبد حتى على افتراض ذلك لا يعادل ذرة من هذه النعم ولكن إذا سلمنا جدلاً بأن هذه الطاعات في مقابل تلك النعم فإن الجنة ونعيمها تصبح زيادة ليس لها مقابل فقد قص علينا رسول الله ﷺ قصة رجل صالح عَبَدَ ربه عبادة متصلة منذ أن أدرك حتى مات ولم يرتكب خطيئة واحدة فقال الله له يوم القيامة أدخل الجنة برحمتي فقال لا ياربي أدخلها بعملي فقال الله لملائكته أحضروا جميع عمله فضعوه في كفة ثم ضعوا نعمة البصر في الكفة الأخرى ففاقت نعمة البصر بمفردها جميع عمله فقال الله لملائكته أدخلوه النار فلما تيقن أنه هالك قال ياربي أدخل الجنة برحمتك فعفا الله عنه وأدخله الجنة [١] .

---

(١) رواه الطبراني

إن الله عز وجل خلق للإنسان أعضاء جسده وجوارحه وحواسه ليؤدي شكرها بأن يستعملها في عبادة الله وطاعته وليس في معصيته يقول تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [١] فإن هو فعل ذلك وأدى ما عليه من الشكر بالإيمان والعمل الصالح حينئذ يغفر الله له ما يكون منه من تقصير ويعطيه الجنة منحةً وزيادةً وكرماً وتفضلاً منه سبحانه فوق ما يستحق فهو إذن لم يدخل الجنة بعمله استحقاقاً ولكنه دخلها برحمة الله وفضله جزاء طاعته لربه ، وإن هو استعمل أعضاء جسده في معصية الله ولم يؤدِ شكرها فيما خلقت من أجله كانت النار جزاءً له على كفره وسوء عمله .

لقد ذكر الله عز وجل في سورة النبأ أن جهنم بالنسبة للكافرين ﴿ **جزاءً وفاقاً** ﴾ [٢] أي أن هذا الجزاء موافق ومطابق تماماً لأعمالهم وهذا أمر بديهي لأن العذاب إن كان أقل مما يستحقونه بأعمالهم فهذه رحمة لا تنبغي أن تكون لأن الله قد حجب رحمته عن الكافرين يقول تعالى ﴿ **أولئك يئسوا من رحمتي** ﴾ [٣] ويقول ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ [٤] أي نصيبهم من العذاب ، وإن كان العذاب أكثر مما يستحقونه بأعمالهم فهذا ظلم والله لا يظلم أحداً من خلقه ، إذن فالكافرون لا يرحمون ولا يظلمون وينالون من العذاب قدر ما يستحقون جزاءً وفاقاً والدليل على ذلك أن عذاب الخلود في النار للكافرين متفاوت في شدته على قدر أعمالهم يقول تعالى ﴿ **ولكلٍ درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ [٥] ويقول ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾ [٦] فعذاب أبي طالب أهون من عذاب أبي جهل وفرعون وهامان وغيرهم من أئمة الكفر لأنه كان يدافع عن النبي ﷺ ولا يحارب دعوته أما السبب في جعل الخلود في النار عقوبة عادلة لهم يشتركون فيها ويستحقونها جميعاً فلأن

---

(١) آية ٥٦ الذاريات
(٢) آية ٢٦ النبأ
(٣) آية ٢٣ العنكبوت
(٤) آية ١٠٩ هود
(٥) آية ١٣٢ الأنعام
(٦) آية ١٩ الأحقاف

مدة العقوبة تتفاوت تبعاً لحجم المعصية ومنزلة من كانت المعصية في حقه فإذا بلغت المعصية ذروتها وهي الكفر أو الشرك بالله وكانت تتعلق بذات الله الإله الأوحد الذي له المثل الأعلى في السموات والأرض فحينئذٍ تكون مدة العقوبة العادلة هي الخلود في النار وعدم الخروج منها وهذا هو عين ما يستحقونه ، أما الموحدون العصاة فإن معصيتهم لم تبلغ الذروة كما أنها إعتداء على حق من حقوق العباد كالقتل والسرقة والزنا وخلافه ولذلك فإن مدة العقوبة تكون محدودة ولو عاملهم الله وفق ما يستحقونه لأخلدهم في النار دون أن يظلمهم لأنهم تجرؤا على معصيته ولكنه يرحمهم لأن معصيتهم أقل من الكفر والشرك فيخرجهم من النار بشفاعة الشافعين ويدخلهم الجنة برحمته .

ومادامت رحمة الله تصيبهم فإن الآية ﴿ **جزاءً وفاقاً** ﴾ لا تنطبق عليهم وإنما تنطبق على الكافرين فقط .

لم يذكر الله في القرآن الكريم بأن نعيم الجنة جزاءً وفاقاً لأهل الجنة لأن هذا الجزاء ليس موافقا ولا مطابقاً لأعمالهم بل هو فوق ذلك بكثير فأهل الجنة يرحمون وينالون فوق ما يستحقون فهم يدخلونها برحمة الله وفضله وليس بأعمالهم ، ولو كان دخولها بأعمال العباد ما دخلها أحد من خلق الله حتى الرسل والأنبياء فقد قال رسول الله ﷺ (ما من أحد يدخله عمله الجنة فقيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني ربي برحمة منه وفضل) [١] .

ولما كانت مشيئة الله تقضي بأن يملأ الجنة ويعمرها فكان لابد أن يجعل الإيمان به شرطاً لدخولها إذ كيف يتنعم بها من لا يؤمن بخالقها وخالق ما بها من هذا النعيم الكبير يقول تعالى ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة** ﴾ [٢] ، وفي الحديث (لا يدخل الجنة إلا المؤمنون) [٣].

---

(١) رواه مسلم (٢) آية ٧٢ المائدة (٣) رواه مسلم

فـإذا حـقق الناس شـرط الإيمان دخلوا الجنة برحـمـة الله إن عـاجـلاً أم آجـلاً وتفاوتت منازلهم ومراتبهم فيها وفقاً لتفاوتهم في الإيمان والعمل الصالح هكذا قضت مشيئة الله ، فالله عز وجل قد منحهم الجنة جزاء لما قدموه من الإيمان والعمل الصالح لأنهم أوفوا بالشرط الذي حدده الله لدخول الجنة فكان حقاً على الله أن يفي بوعده فأدخلهم الجنة برحمته ، وبذلك يكون معنى قوله تعالى ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ (١) وقوله ﴿ **وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ (٢) أن الإيمان والعمل الصالح سبب للفوز برحمة الله ودخول الجنة التي جعلها الله جزاء لهم على ذلك فدخولهم الجنة ليس لأنهم استحقوها بأعمالهم ولكن لأنهم استوفوا شرط دخولها ولنضرب مثلاً على ذلك لو أن ملكاً من الملوك طلب من كل فرد من رعاياه أن يحضر له حبة واحدة من القمح خلال فترة زمنية محددة وكان ذلك يسيراً عليهم ووعدهم إن هم أطاعوه أن يمنح كل فرد منهم قصراً به ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين فأطاعه البعض ففاز بالمنحة واستخف البعض ولم يصدق فحُرم المنحة وعوقب فهل نقول بأن قيمة القصر وما فيه من النعيم تقدر بقيمة هذه الحبة من القمح ؟ هل الشخص حصل على القصر لأنه مستحقاً له وجديراً به أم لأنه استوفى شرط الحصول عليه ؟ الإجابة لأنه استوفى الشرط فحصل عليه كمنحة جزاء طاعته للملك وكذلك المؤمنون استوفوا شرط دخول الجنة فأدخلهم الله الجنة برحمته وورثهم إياها كمنحة منه سبحانه جزاءً لما قدموه من الطاعة والإيمان والعمل الصالح .

وكما أن العباد جميعاً غير مستحقين لدخول الجنة بأعمالهم فإنهم أيضاً غير مستحقين للنجاة من النار بأعمالهم حتى الأنبياء منهم ففي الحديث (لن ينجو أحد منكم بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل) (٣) .

ولقد جمع رسول الله ﷺ بين دخول الجنة والنجاة من النار في حديثٍ واحد

---

(١) آية ٣٢ النحل (٢) آية ٧٢ الزخرف (٣) رواه مسلم

فقال (لا يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة ولا يجيره من النار ولا أنا إلا برحمة من الله) [١] .

ولقد ورد عنه ﷺ أن الله عز وجل قسم الرحمة إلى مائة جزء جعل منها جزءً واحداً في الدنيا وادخر تسعة وتسعين جزءً يرحم بها عباده المؤمنين يوم القيامة خصهم بذلك دون الكافرين فهو سبحانه وتعالى يرحمهم أولاً بأن يخفف عنهم من أهوال يوم الحشر ، ويرحمهم ثانياً بأن ينجي من شاء منهم من دخول النار ولولا رحمة الله لاستحقوا جميعاً أن يدخلوها يقول تعالى ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾ [٢] ولكن الله يضاعف لهم حسناتهم ويعفو عن الكثير من سيئاتهم ويهب لهم النعم التي كانت في الدنيا لا يحاسبهم عليها ولا يستقطعها من حسناتهم خالصة لهم من دون الكافرين ولو حاسبهم عليها لاستوعبت النعمة الواحدة جميع حسنات العبد ولبقيت الذنوب والنعم الأخرى ولم يبق لهم من عملهم الصالح شيء ولكن الله لا يحاسبهم عليها ويعفو عن تقصيرهم في أداء حق الشكر لله على هذه النعم يقول تعالى ﴿ **قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين ءامنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ [٣] ، ويرحمهم ثالثاً بأن ينجي من دخل منهم النار فيخرجهم منها ولو شاء الله لأخلدهم فيها لأنهم تجرؤا على معصيته ولم يوفوه حقه من الشكر والعبادة ، ثم يرحمهم رابعاً بأن يدخلهم الجنة .

---

(١) رواه مسلم (٢) آية ٦١ النحل (٣) آية ٣٢ الأعراف

الوقفــة الثامنة

القول بأن الله أبقى إبليس حياً إلى يوم القيامة

الوقفة الثامنة

القول بأن الله أبقى إبليس حياً إلى يوم القيامة

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه الثالث من سلسلة معجزة القرآن صفحتي ١٥٦ ، ١٥٧ [طلب إبليس من الله عز وجل أن يبقيه حياً حتى يوم القيامة .. إلى أن تقوم الساعة .. إلي يوم يبعثون .. فأجابه الله إلي طلبه قال تعالى ﴿ **فإنك من المنظرين إلي يوم الوقت المعلوم** ﴾ حينئذٍ تيقن إبليس أنه سيبقى إلى يوم القيامة فطفحت عوامل الشر والكراهية في نفسه لآدم وبنيه] .

تعقيباً على ما ذكره فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أرى أن الله عز وجل لم يمهل ولم يبق ابليس حياً إلى يوم القيامة فقد أراد إبليس أن ينجو من الموت لعلمه بأنه لا موت بعد البعث فأراد أن يحتال على ربه ويسأله أن يبقيه إلي يوم البعث لعلمه بأن الله إن وعده بذلك فلن يخلف الله وعده ظناً منه بأن الله لا يعلم سريرته ومقصده من وراء هذا المطلب ، قال إبليس ﴿ **ربِ فأنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ [(١)] ولكن الله الذي كتب الموت والهلاك والفناء على جميع الخلائق فلا يبقى إلا الله الواحد القهار علم خبث إبليس وسوء نيته فلم يجبه إلى طلبه ، لم يقل الله له (فإنك من المنظرين إلى يوم يبعثون) ولكنه قال له ﴿ **فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ [(٢)] وهو يوم الوقت المحددلانتهاء أجله والمعلوم لله عز وجل فإن أجل إبليس مدون ومعلوم لله قبل ان يخلقه شأنه في ذلك شأن جميع الخلائق .

ولما كان دور إبليس غواية الإنس والجن وهؤلاء سيهلكون عن آخرهم مع قيام

---

(١) آية ٧٩ ص (٢) آيتي ٨٠ ، ٨١ ص

الساعة عند نفخة الصعق فلا معنى ولا ضرورة من إبقاء إبليس حياً بعد هذا الوقت ، لذلك فإن يوم الوقت المعلوم والذي ينتهي فيه أجل إبليس هو وقت قيام الساعة مع نفخة الصعق .

والمتأمل في آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة يجد أن الساعة تختلف عن يوم القيامة فهي ليست إحدى مسمياتها كما ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي وغيره من المفسرين فإن يوم القيامة هو يوم البعث حيث يبدأ اليوم منذ اللحظة التي يبعث فيها الناس من قبورهم أحياء وما يعقب ذلك من الحشر والحساب يقول تعالى ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ [1] من أجل ذلك سُمي بيوم القيامة لأنه اليوم الذي يقوم فيه العباد من قبورهم للحساب وينتهي بأن يأذن الله لمن هو آخر أهل النار خروجاً منها بأن يخرج منها ويدخل الجنة فيكون هو ذاته آخر أهل الجنة دخولاً إليها من الموحدين العصاة ولا يتبقى في النار إلا من كتب عليه الخلود فيها فإذا ذبح الموت على الصراط بين الجنة والنار واستقر أهل الجنة في الجنة واستقر أهل النار في النار فحينئذٍ ينتهي يوم القيامة وتبدأ حياة الخلود .

أما الساعة فقد أطلق عليها هذا الإسم لأنها آخر ساعة في عمر الدنيا تقوم على الناس في آخر الزمان وهم أحياء يتبايعون ويأكلون ويشربون ويتفاسدون ويصرفون شئون حياتهم فتأتيهم بغتة وهم لاهون فينتابهم الفزع الشديد ثم يصعقون يقول تعالى ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة** ﴾ [2] ، وفي الحديث (لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس) [3] ، وفي حديث آخر (تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة فما يصل الإناء إلي فيه حتى تقوم ، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم ، والرجل يلوط حوضه فيما يصدر حتى تقوم) [4] .

---

(١) آية ٦ المطففين (٢) آية ١٨ محمد (٣) رواه مسلم (٤) رواه مسلم

وهناك ثلاث نفخات كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية النفخة الأولى هي نفخة الفزع يقول تعالى ﴿ **ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكلٌ أتوه داخرين** ﴾ [١] . وهذه النفخة هي التي تجعل الناس الأحياء وقتئذ سكارى من شدة العذاب والفزع يقول تعالى ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حملٍ حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ [٢] .

أما النفخة الثانية فهي نفخة الصعق والتي يحدث بسببها التدمير الشامل في الكون بأسره كما جاء في سورة الطور والواقعة والحاقة والمعارج والمرسلات والنبأ والنازعات والتكوير والإنفطار والإنشقاق والزلزلة والقارعة وتنتهي جميع مظاهر الحياة ويصعق ويمت كل من كان حياً في الأرض والسموات إلا من شاء الله وحينئذٍ تنتهي أحداث الساعة يقول تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ [٣] ، أما الذين استثناهم الله فإنهم يموتون بعد هذه النفخة بقبض أرواحهم ومنهم جبريل وإسرافيل وميكائيل وملك الموت وحملة العرش ولا يتبقى إلا الله الحي القيوم ، ومن العلماء من يرى أن نفخة الفزع هي ذاتها نفخة الصعق حيث يبدأ تأثيرها بفزع الأحياء أولاً ثم يصعقون ويموتون على أثر ذلك .

أما النفخة الثالثة أو الثانية فهي نفخة البعث قال تعالى ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ [٤] ، ﴿ **فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون** ﴾ [٥] ، ﴿ **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، إن كانت إلا صيحة واحدة**

---

(١) آية ٨٧ النمل
(٢) آيتي ١ ،٢ الحج
(٣) آية ٦٨ الزمر
(٤) آية ٦٨ الزمر
(٥) آية ١٩ الصافات

فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ [1] .

نخلص مما سبق أن الساعة تبدأ والناس أحياء وتنتهي بالصعق والإماتة وتعتبر نفختي أو نفخة الفزع والصعق من أحداث الساعة ، أما يوم القيامة فمن أحداثها نفخة البعث والنشور ، ويبدأ يوم القيامة ببعث الموتى من قبورهم أحياء حيث يقومون للحساب بين يدي رب العالمين وينتهي ببدء خلود أهل الجنة في الجنة وبدء خلود أهل النار في النار وذلك حين يُذبح الموت بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت .

قال تعالى ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً** ﴾ [2] ، وقال ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً** ﴾ [3] ثم قال سبحانه وتعالى عقب ذلك ﴿ **وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ [4] حينئذٍ أُسدل الستار على أحداث يوم القيامة وبدأت حياة جديدة هي حياة الخلود إما في الجنة وإما في النار .

---

(١) آيات من ٥١ حتى ٥٣ يس (٢) آية ٧٢ الزمر (٣) آية ٧٣ الزمر (٤) آية ٧٥ الزمر

الوقفة التاسعة

ما يتعلق بمعنى (أن تلد الأمة ربتها)

الوقفة التاسعة

ما يتعلق بمعنى (أن تلد الأمة ربتها)

هذه إحدى علامات الساعة التي ذكرها رسول الله ﷺ ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه الثالث مشاهد يوم القيامة من سلسلة كتابه معجزة القرآن صفحة ٢٥٦ أن البعض فسرها بأن أولاد الفقراء يتعلمون ويصبحون من ذوي المناصب الهامة فتتنكر الإبنة لأمها وتجد أنه من العار أن تعترف أنها إبنة لهذه الأم فتجعلها خادمة عندها ، وفسرها البعض بأن الإبنة إذا تزوجت رجلاً غنياً أصبحت أمها خادمة عندها ، وفسرها فضيلته بأن تصبح الإبنة هي الآمرة الحاكمة في البيت تفرض رأيها على أمها وأبيها ولا يجرؤان إلا أن يطيعاها وتصبح الإبنة هي سيدة البيت وليست الأم وأمرها هو النافذ ، وقيل بأن الأمة تكون عند سيدها فينجب منها إبنة ينسبها إلى نفسه ويمنحها إسمه وتكون حرة وتظل أمها أمة وخادمة لها في حياة السيد وبعد مماته .

أرى أن جميع هذه التفسيرات حدثت في عهد النبوة وما قبله وبالتالي لا تصلح أن تكون تفسيراً لإحدى علامات الساعة لأن تفسير (أن تلد الأمة ربتها) يجب أن يكون شيئاً جديداً مستغرباً وليس مألوفاً ، ولا يخلو عصر من عقوق البنات لأمهاتهن بسبب أنهن أكثر علماً في الشعر أو الأدب وأكثر نفوذاً وأسمع كلمة بين أقوامهن من أمهاتهن ، وإمكانية زواج البنات من رجال أغنياء وعقوقهن وتكبرهن على أمهاتهن أمر غير مستبعد في جميع العصور وبالذات بين أوساط الباغيات ممن لا يقمن وزناً للأخلاق والفضيلة .

التفسير الذي أراه صالحاً لهذه العلامة من علامات الساعة التي ذكرها نبينا الكريم يتعلق بمسألة إستئجار الأرحام فهو التفسير الذي ينطبق تماماً مع القول النبوي (أن تلد الأمة ربتها) فقد حدث لأول مرة منذ بضع سنين أن كانت إحدى

الزوجات تعاني من مشاكل في الحمل فلا يكتمل الجنين في بطنها بسبب آلام في الظهر ومشاكل في الرحم فينزل الجنين ميتاً فاتفق الزوجان مع إحدى السيدات الفقيرات على أن يقوم الطبيب بحقنها في رحمها ببويضة الزوجة المخصبة من زوجها على أن تحمل الجنين في بطنها حتى يكتمل لحساب الزوجين ثم تلده وتلتزم بتسليم المولود إلى الزوجين بموجب عقد اتفاق مبرم بينهما مقابل أجر معين ، وبالفعل تم سحب البويضة المخصبة من رحم الزوجة وحقنها في رحم السيدة الفقيرة فحملت ثم ولدت إبنة جميلة فتعلقت بها أشد التعلق ورفضت تسليمها للزوجين وبكت بكاءً شديداً وقالت إنها إبنتها ومن المحال أن تتنازل عنها ، وعُرضت القضية على القضاء الإنجليزي فاحتار القضاة أيهما هي الأم الحقيقية هل هي صاحبة البويضة المخصبة (الزوجة) أم هي الأم التي حملت وولدت ؟ وتضاربت الأقوال ولم يصلوا إلى رأي قاطع في هذه المسألة فقضت المحكمة بضرورة الإحتكام إلي العقد باعتبار أن العقد شريعة المتعاقدين وألزموا السيدة الفقيرة بتسليم مولودتها إلى الزوجين وهم لا يدرون أن الله قد حكم في هذه المسألة حيث قال تعالى ﴿ **إنْ أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾[1] وقوله في تعريف الأم ﴿ **حملته أمه وهناً على وهن** ﴾[2] ، وقوله ﴿ **حملته أمه كُرهاً ووضعته كُرهاً** ﴾[3] ، فالأم الحقيقية هي التي تحمل وتلد لأن الجنين يأخذ غذاءه من دمها ثم ينمو ويتطور وتتكون له جميع أجهزته حتى يكتمل والأهم من ذلك كله أن الروح تدخل فيه وهو في بطنها بعد أربعة أشهر ويصبح إنساناً حياً منذ هذه اللحظة ، أما البويضة المخصبة فهي شيء ميت ليست فيه حياة كالبصقة تبصقها المرأة وأكبر دليل على ذلك أن عيسى عليه السلام سماه الله عيسى ابن مريم لأنها حملته في بطنها وولدته مع أن البويضة المخصبة ليس لها وجود لأنها عذراء لم يمسسها رجل .

ثم بعد ذلك تطوعت إحدى الأمهات أن تحمل نيابة عن إبنتها المتزوجة

---

(١) آية ٢ المجادلة . (٢) آية ١٤ لقمان (٣) آية ١٥ الأحقاف

للتخفيف عنها من آلام الحمل الذي عانت منه كثيراً ووعدت بأن تهب المولود لإبنتها وزوج إبنتها وبالفعل حقنها الطبيب ببويضة إبنتها المخصبة من زوجها وتم الحمل والولادة وسلمت المولود لهما وبذلك اختلطت الأنساب فالمولود يعتبر من الوجهة الشرعية إبنها وشقيق للزوجة أما من الوجة القانونية والعرفية فإن المولود حفيدها وإبن للزوجين وفي كلتا الحالتين فإن المولود هو إبن لزوج إبنتها ومعنى ذلك أنه أشبه ما يكون بالزنا فقد ورد عن النبي ﷺ قوله (إن من أكبر الكبائر النطفة يضعها الرجل في رحم إمرأة أجنبية)[1].

ثم تطورت الأحداث وتم تنفيذ هذه العملية على إحدى الخادمات ، ومع كثرة حالات بيع الأهالي لأطفالهن ذكوراً وإناثاً بسبب المجاعات بالإضافة إلى خطف الأطفال أو أسرهن في الحروب ظهرت الإماء في بيوت الأغنياء وأصبح في الإمكان إستئجار رحم الأمة فحملت وولدت لحساب الزوجين سيدتها وسيدها سواء تمت هذه العملية بالمجان أو مقابل أجر مادي ، بالطبع فإن الزوجين يعتقدان أن المولودة ستكون إبنتهما عملاً بالعقود والأعراف لأنهما لا يعلمان حكم الإسلام في هذه المسألة فهما يظنان أن الأم الحقيقية هي صاحبة البويضة المخصبة وليست التي حملت وولدت وبالطبع سيفهمان المولودة عندما تكبر أن السيدة هي أمها الحقيقية أما الأمة فهي مجرد حاضنة لها في بطنها كما لوكانت هذه البطن مجرد مستودع لحفظ الأمانة فهذه عملية خدمية بحتة والأمة أو الخادمة أخذت أجرها مقابل ذلك وانتهى كل شيء ، وبالطبع ستستقر هذه النظرة وترسخ في أعماق البنت وعقلها وقلبها فإذا ماتت السيدة تربعت البنت على عرش السيادة بصفتها إبنة المتوفية من وجهة نظر العرف والقانون وعاملت أمها (الأمة) بازدراء واحتقار وتكبر على أنها خادمتها ومولاتها وبذلك تتحقق هذه العلامة من علامات الساعة (أن تلد الأمة ربتها) كما قال رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه أحمد والطبراني

وفقاً لهذا التفسير تكون الأم أمة لإبنتها على وجه الحقيقة وليس على سبيل المجاز كما هو الحال بالنسبة للتفسيرات الثلاثة الأولى التي تجعل الأم كما لوكانت أمة لمجرد أن إبنتها عاملتها معاملة سيئة ، والقول النبوي بطبيعة الحال يجب أن يفسر على معناه الحقيقي وليس المجازي مادام أن ذلك ممكناً .

وإذا أمعنا النظر لوجدنا أن العلامتين اللتين ذكرهما الرسول عليه الصلاة والسلام في حديث نبوي واحد وهما (أن تلد الأمة ربتها) ، (أن تجد الحفاة العراة رعاة الإبل يتطاولون في البنيان) بين هاتين العلامتين فترة زمنية قصيرة لا تزيد عن ١٥ سنة وهي فترة بسيطة جداً بالمقارنة إلى عمر البشرية منذ زمن آدم عليه السلام حتى قيام الساعة .

الوقفة العاشرة

القول بأن الشرك بالله ليس ذنبا

الوقفة العاشرة

القول بأن الشرك بالله ليس ذنباً

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في كتابه الثالث مشاهد يوم القيامة من سلسلة معجزة القرآن صفحة ٣٤٨ في رده على من اعتقد وجود تعارض بين قوله تعالى ﴿ **إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ ما نصه :-

[الشرك ليس ذنباً إنه فوق الذنوب جميعاً ذلك أن الذنب يقتضي أن تكون مؤمناً بمنهج وخالفته ولكن الشرك هو عدم إيمان بالمنهج أصلاً فلفظ الذنب لا ينطبق على المشرك لأن المشرك ليس مؤمناً بمنهج الله وشرط الذنب الذي يقتضي المغفرة من الله سبحانه وتعالى أن يكون هناك إيمان ومخالفة وندم وتوبة والكافر لا يندم ولا يتوب لأنه لا منهج له] .

أستسمح فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في عرض الرأي الذي أراه أقرب إلى النصوص الشرعية :-

بالنسبة للقول بأن الشرك ليس ذنباً نجد أن القرآن الكريم قد ميز بين الإثم والفاحشة فقال تعالى ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش** ﴾ [١] ، كما ميز بين الخطيئة والإثم فقال تعالى ﴿ **ومن يكسب خطيئة أو إثماً** ﴾ [٢] ، أما الذنب فلم يميز القرآن الكريم بينه وبين أي مسمى آخر فدل ذلك على أنه إسم جامع لكل سيئة يرتكبها الإنسان تخالف ما أمر الله به وتوافق ما نهى عنه وبناء على ذلك فإن الشرك من الذنوب بل هو أعظمها والدليل على ذلك قوله تعالى عن الأمم السابقة التي كفرت بالله وكذبت رسله مثل قوم لوط وعاد وثمود وقارون وفرعون

---

(١) آية ٣٣ النجم (٢) آية ١١٢ النساء

وقوم نوح ﴿ **فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا** ﴾ [1] فقد سمي الكفر ذنباً ، ومثله قوله تعالى ﴿ **كدأب ءَال فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب** ﴾ [2] ، وفي الحديث (كُل ذنبٍ عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً) [3] فسمى الكفر ذنباً ، وفي سورة الملك يقول تعالى ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير** ﴾ [4] ثم يقول عن هؤلاء الكافرين ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ [5] ، وفي سورة غافر يسجل الله على الكافرين والمشركين قولهم ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلي خروج من سبيل** ﴾ [6] ثم بين أنهم هم الكافرون المشركون فقال ﴿ **ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير** ﴾ [7] ، وفي سورة لقمان بيَّن الله بأن الشرك ظلم قال تعالى ﴿ **إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ [8] ثم بيَّن في سورة آل عمران أن الظلم من الذنوب وبذلك يكون الشرك ذنباً قال تعالى ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ [9] .

ولقد أجمعت كتب التفاسير على أن هذه الآية الكريمة ﴿ **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ [10] تتضمن دعوة عامة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة بدليل قوله تعالى عقب ذلك ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له** ﴾ [11] ثم قوله ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ [12] وهو شهادة أن لا إله إلا الله والإيمان به إلها واحداً لا شريك له وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ثم قوله تعالى في ختام سياق هذه الآيات ﴿ **بلى قد جاءتك ءَاياتي فكذبت بها**

(١) آية ٤٠ العنكبوت
(٢) آية ٥٢ الأنفال
(٣) رواه الإمام أحمد
(٤) آية ٦ الملك
(٥) آية ١١ الملك
(٦) آية ١١ غافر
(٧) آية ١٢ غافر
(٨) آية ١٣ لقمان
(٩) آية ١٣٥ آل عمران
(١٠) آية ٥٣ الزمر
(١١) آية آية ٥٤ الزمر
(١٢) آية ٥٥ الزمر

واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ [1] .

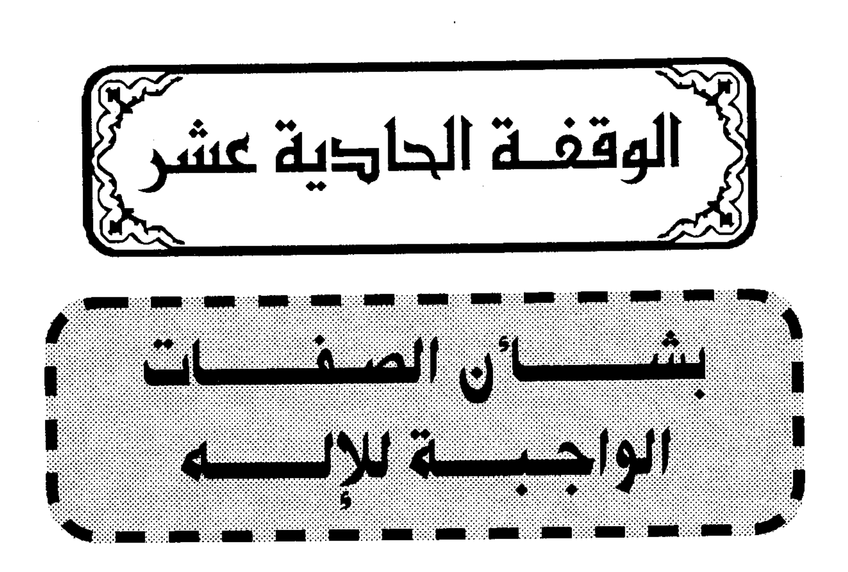
إذن فالآية الكريمة ﴿ **قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ موجهة إلى جميع العباد مؤمنهم وكافرهم وهذه الآية لاتتعارض مع قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ [2] لأن الآية الأولى تتعلق بالحياة الدنيا أما الآية الثانية فإنها تتعلق باليوم الآخر فالله عز وجل يغفر الذنوب جميعاً حتى الكفر والشرك مادام الإنسان حياً لم يدركه الموت إن استغفر ربه وتاب إليه توبة نصوحة يدل على ذلك قوله تعالى عن الشرك والقتل والزنا ﴿ **إلا من تاب وءامن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيما** ﴾[3] وقوله ﴿ **وإني لغفار لمن تاب وءامن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ [4] ومن أمثلة ذلك مشركي قريش الذين تابوا وآمنوا بالله وبما أنزل على محمد فتاب الله عليهم وغفر لهم ، ولو كان الشرك ليس ذنباً ولا يدخل ضمن قوله تعالى ﴿ **إن الله يغفر الذنوب جميعاً** ﴾ فما هو الدليل القرآني على أن الشرك يُغْفَر لصاحبه إن تاب وآمن بالله ؟

أما إذا مات العبد مشركاً بالله فإن الله لا يغفر له بينما قد يغفر للعصاة من المؤمنين ذنوبهم وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ ، وهذه الآية مثل قوله تعالى ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ [5] فهذه الآية بينت متى لا يغفر الله للكافر المشرك ؟ بالطبع لا يغفر الله له إن هو مات على الكفر والشرك أما في حياته وقبل مماته فإن الله يغفر الذنوب جميعاً حتى الكفر والشرك

---

(١) آية ٥٩ الزمر
(٢) آية ٤٨ النساء
(٣) آية ٧٠ الفرقان
(٤) آية ٨٢ طه
(٥) آية ٣٤ محمد

بدليل أنه يتقبل من الكافر والمشرك إسلامه ، وإذا كان فضيلة الشيخ يعتبر أن الشرك ليس ذنباً من منطلق أن الذنب إيمانٌ بالمنهج ثم مخالفته فإن المشرك بناء على هذا التعريف يُعَدُ مذنباً لأنه في الأصل كان مؤمناً إيماناً فطرياً وأشهده الله على ربوبيته وولد على الفطرة ولكنه استبدل بالإيمان كفراً فصار بذلك مذنباً وظالماً لنفسه .


الوقفـة الحادية عشر
بشـــأن الصفـــات
الواجبـــة للإلـــه

الوقفة الحادية عشر

بشــأن الصفــات الواجبــة للإلــه

قال تعالى ﴿ **ما اتخذ الله من ولدٍ وما كان معه من إلهٍ إذاً لذهب كلُ إلهٍ بما خلق ولعلا بعضُهم على بعض سبحان الله عما يصفون** ﴾ [1] .

جاء في كتب التفسير في معنى قوله تعالى ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ أي لغلب القوي الضعيف وقهره وأخذ ملكه كما هي عادة ملوك الدنيا .

أما فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فقد ذكر قولاً مشابهاً لذلك في حلقاته (تفسير القرآن العظيم) عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ، فقد ذكر فضيلته أنه لو كان مع الله آلهة أخرى لتقاسموا الكون فيما بينهم إلى قطاعات أو أجناس فيأخذ كل إله بقدرته شيئاً ويترك بعجزه شيئاً (أي أن كلام فضيلته يحمل معنى المغالبة والمنازعة وتباين القوة فيما بينهم فعلى قدر القوة يكون قدر ما يستولى عليه كلٌ منهم) أو أن كل إله يستغني بقطعة من الكون عن قطعة فيعلو كل إله بما يخلق وأمثالها في الدنيا مثل الملوك يعلو بعضهم على بعض كل واحد يعلو بما أخذ .

إلى هنا انتهى كلام فضيلة الشيخ وهو شبيه إلى حدٍ كبير بأقوال غيره من المفسرين .

وجميع هذه التفاسير أراها بعيدة كل البعد عن المعنى الصحيح للأسباب الآتية :

اولا:

إن من صفات الذات الثابتة والواجبة في الإله صفة القدرة فيكون على كل شيء قدير ، وصفة الإرادة فيكون فعالاً لما يريد ، وصفة العلم فيكون بكل شيءٍ

(١) آية ٩١ المؤمنون

عليم ، وصفة الحياة فيكون حياً دائماً لا يموت ، وصفة الغنى فيكون غنياً مستغنياً بذاته عن كل شيءٍ غيره ، ولا يتصور الإله بدون هذه الصفات أو محدوداً في أي صفة من هذه الصفات وإلا لم يكن مستحقاً لمقام الإلوهية لأن الإله هو من له المثل الأعلى في هذا الوجود في كل صفة من صفات ذاته يقول تعالى ﴿ **وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [١] ، فالصفة قد بلغت منتهاها عند الإله فلا علم يفوق علمه ولا قدرة تفوق قدرته ولا إرادة تفوق إرادته ولا حياة تفوق حياته ولا غنى يفوق غناه ، فإن تفوق إله على إله في إحدى هذه الصفات فإن الأدنى لا يكون إلهاً لأنه ليس له المثل الأعلى ولأنه سيكون مقهوراً ومغلوباً على أمره والإله لا يكون كذلك .

بناء على ذلك فإنه لو كان في الوجود إلهان حقيقيان لكانا متماثلين في كل صفة من هذه الصفات الواجبة للذات والدليل على ذلك قوله تعالى عن نفسه ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ [٢] معنى الآية أنه لا يشبهه ولا يماثله أحد في صفاته لأنه إله واحد ، ولو كان معه إله آخر في هذا الوجود لكان مثله ولعلم الله بوجوده لأنه هو السميع البصير الذي أحاط سمعه وبصره هذا الوجود فما من صغيرة ولا كبيرة إلا يسمعها ويراها ﴿ **إنه بكل شيءٍ بصير** ﴾[٣] ، فالوجود كله ليس فيه أكوان ولا عوالم أخرى غير التي خلقها الله ، وليس فيه إله آخر ولا آلهة أخرى غير الله الواحد القهار ﴿ **قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار** ﴾ [٤] ، وليس لهذه العوالم سوى سقف واحد يلفها ويحيط بها وهو عرش الله سبحانه وتعالى ﴿ **قل لو كان معه ءالهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً** ﴾ [٥] ، والله جل شأنه فوق عرشه قد أحاط بالوجود كله لا يغيب عن علمه ولا سمعه ولابصره حقير ولا جليل من أجل ذلك شهد الله بناء على علمه

---

(١) آية ٢٧ الروم
(٢) آية ١١ الشورى
(٣) آية ١٩ الملك
(٤) آية ١٦ الرعد
(٥) آية ٤٢ الإسراء

الواسع أنه لا إله إلا هو ونحن نشهد بما شهد الله به والملائكة يشهدون قال تعالى ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (١)، وقد أمرنا الله أن نعلم بما علمه هو فقال تعالى ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ (٢) ، وقال ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب** ﴾ (٣) .

وإذا أمعنا النظر لوجدنا إرتباطاً وثيقاً بين الآية التي نحن بصددها والآية التي جاءت بعدها وهي قوله تعالى ﴿ **عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾ (٤) فالغيب هو ما غاب عن علم المخلوقات في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، ولأن الله هو عالم الغيب والشهادة فإنه يقرر ويشهد بأنه لم يسبق في الماضي أن كان في الوجود آلهة أخرى ، وبأنه لا يوجود حالياً آلهة معه ، وبأنه لن يكون في المستقبل آلهة أخرى ، أي لا توجد آلهة مع الله لا في القديم الأزلي ولا في المستقبل الأبدي ولا في الحاضر الغيبي أو المشهود .

ومما يتبادر إلى الفهم من قوله تعالى ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ أنه لو كان معه إله آخر لكان مثله في صفات الإلوهية الواجبة المتعلقة بالذات كالعلم والقدرة والإرادة والغنى والحياة وغير ذلك من الصفات الواجبة التي لا تنبغي أن تنفك عن الذات .

ومن الأدلة الأخرى قوله تعالى عن نفسه ﴿ **ولم يكن له كفواً أحد** ﴾ (٥) أي لم يكن له شريك كفء له يماثله ويناظره في صفاته ، والشريك هو الإله ، فعُلم بذلك أنه لو كان معه إله آخر لكان كفءً له يساويه ويماثله في صفات الإلوهية الواجبة للذات .

ومن الأدلة أيضاً قوله تعالى ﴿ **لو كان فيهما ءالهة إلا الله لفسدتا** ﴾ (٦)

---

(١) آية ١٨ آل عمران
(٢) آية ١٩ محمد
(٣) آية ٥٢ إبراهيم
(٤) آية ٩٢ المؤمنون
(٥) آية ٤ الإخلاص
(٦) آية ٢٢ الأنبياء

فهذا دليل على تماثل الآلهة في صفاتها الذاتية فإذا تعارضت واصطدمت مشيئاتهم فسد الكون فأحدهم يريد تحريك الشيء وآخر يريد سكونه والإرادتان متساويتان فما الحل ؟ وأحدهم يريد بناء الشيء وآخر يريد تدميره فما الحل ؟ قطعاً سيفسد الكون كما ذكر الله ، أما إذا كان أحد هؤلاء الآلهة أقوى من الآلهة الأخرى على حد قول المفسرين لقوله تعالى ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ بأنه يغلب القوي الضعيف ويقهره ويأخذ ملكه كعادة ملوك الدنيا فإن مشيئة هذا الإله القوي ستكون هي النافذة وبذلك لن يفسد الكون لأنه سيكون خاضعاً لمشيئة إله واحد ولكن الله يقول ﴿ **لو كان فيهما ءَالهة إلا الله لفسدتا** ﴾ ففهم من ذلك أن الآلهة أكفاء متساوون وأن مشيئاتهم متساوية .

ثانيــاً:

إن تفسير قوله تعالى ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ بأن يغلب القوي الضعيف ويقهره ويأخذ ملكه أي يستولي على مخلوقاته يتعارض مع قوله تعالى في نفس الآية ﴿ **إذاً لذهب كل إله بما خلق** ﴾ ، فطالما أن الآلهة الأضعف ستقهر ويؤخذ ملكها وملكها هو مخلوقاتها التي خلقتها فكيف إذن يذهب كل إله بما خلق ؟ إن تفسير نهاية الآية يتعارض مع بدايتها . إن ذهاب كل إله بما خلق دليل على أنه قادر على حماية ملكه ومخلوقاته وهذا دليل على تكافؤ الآلهة وتماثلها فليس بينهم قوي وضعيف .

ثالثــاً:

لو كان المقصود بالعلو في الآية الكريمة علواً في القدر لقال الله تعالي (ولعلا بعضهم فوق بعض درجات) بدلا من قوله تعالى ﴿ **ولعلا بعضهم على بعض** ﴾ إستناداً إلى قوله تعالى عند مفاضلته لمراتب الناس ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾ [1] وقوله تعالى ﴿ **وهو الذي**

(١) آية ٣٢ الزخرف

جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ [١] ، كما تتضح مسألة الفوقية في الدرجات أيضاً في قوله تعالى **﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علمٍ عليم ﴾** [٢] .

رابعـاً:

بناء على ما سبق ذكره فإن المعنى الذي أراه صحيحاً لقوله تعالى **﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾** [٣] أن هذا الوجود لو كان فيه إله مع الله لكانا متكافئين متساويين متماثلين في كل شيء من صفات الإلوهية الواجبة والمتعلقة بالذات وما كان هناك جدوى من المحاربة والمقاتلة لأن كل إله منهما قوي لا يقهر ، وحي لا يموت ، وقادر على إصلاح ما أتلفه الآخر في ملكه لأنه على كل شيء قدير ، من أجل ذلك فإن الحكمة تقتضي أن يُحَل ما بينهما سلمياً فيذهب كل إله بما خلق ويستقل بملكه ويتعالى كل إله على الآخر **علو كبرياء** لأن الكبرياء صفة ثابتة في كلٍ منهما ، ويكون لمخلوقات كل إله ناموس خاص بها تخضع له ، ولكن مادامت المخلوقات جميعها منتظمة ومتعايشة في كونٍ واحد وتخضع لناموس واحد وتصريف واحد وتدبير واحدوسنن كونية واحدة فهذا دليل على أن خالقهم إله واحد لا إله غيره في هذا الوجود .

إذن فالعلو **علو كبرياء** وليس علو منزلة .

خامساً:

إن الإسلام هو العقيدة والديانة الوحيدة التي أعطت تصوراً حقيقياً لما ينبغي أن يكون عليه الإله من الصفات وهو الوحيد الذي قدر الإله حق قدره من حيث صفات الكمال ونزهه عن كل نقصان فالمسيحية بعد تحريفها جعلت الإله في حجم

---

(١) آية ١٦٥ الأنعام (٢) آية ٧٦ يوسف (٣) آية ٩١ المؤمنون

الإنسان يولد ويأكل الطعام ويحتاج إلى غيره ليستمد منه مقومات حياته ويُعذَّب ويُصلب ويُقهر ويموت ، واليهودية جعلت الإله فقيراً وبخيلاً وضعيفاً يصارعه يعقوب فيغلبه وجعلوه يندم ويتعب عندما نسبوا إليه أنه بعد أن خلق السموات والأرض في ستة أيام استراح في اليوم السابع وهو يوم السبت وتشككوا في كمال علمه عندما اختار عليهم طالوت ملكاً وتشككوا في كمال سائر صفاته .

كما أن الوثنيين من عباد الأصنام كمشركي مكة وقوم نوح وقوم إبراهيم عليه السلام قد جعلوا الآلهة متفاوتين منهم الكبير والصغير ومنهم القوي والضعيف ، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ [1] ، وبعض المشركين كالمصريين القدامى جعلوا لكل إله تخصصاً لا يتجاوزه إلي غيره فقالوا إله الموت ، إله الحرب ، إله السلم ، إله الحب ، إله الشمس ، إله المطر ، إله الزرع ... وهكذا . حتى أن أمثال هؤلاء المشركين قد تعجبوا أن ينظم هذا الكون الواسع إله واحد فقالوا كما ذكر الله ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ، وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على ءالهتكم إن هذا لشيء يراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق** ﴾ [2] وقد ورث الكفار المعاصرون هذا الإعتقاد فشبهوا الآلهة بملوك الدنيا حيث أخرج أحد المخرجين فيلماً سينمائياً بعنوان (صراع الآلهة) حيث يتغلب بعضهم على بعض ويدمر بعضهم بعضاً ، وهذا الإعتقاد الذي عليه الناس قديماً وحديثاً هو من باب جهلهم بصفات الإله الذي لا يقهر ولا يفنى ولا يموت ، كيف ذلك والموت من صنع الإله خلقه من العدم يقول تعالى ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ [3] ، ومنشأ هذا الإعتقاد الخاطيء أن الناس قاسوا صفات الإله بصفات البشر وسائر المخلوقات فشبهوا الآلهة بملوك الدنيا وهذا خطأ فادح بلاشك .

---

(١) آية ٦٣ الأنبياء (٢) الآيات من ٥ حتى ٧ ص (٣) آية ٢ الملك

ولعل من المفيد أن نعلم بأن الإله الحق هو من توفرت في صفاته ثلاثة أمور لا يتصور الإله بدونها وهذه قد انفرد الله سبحانه وتعالى بها وهذه الأمور هي :-

الأمر الأول :

أن تكون صفات الإلوهية جميعها حسنى فالله غني وليس فقير ، قوي وليس ضعيف ، قادر وليس بعاجز ، عليم وليس بجاهل ، سميع وليس بأصم ، بصير وليس بأعمى ، حي وليس بميت وهكذا سائر صفات الإلوهية كالعظيم والجليل والكبير والعلي والواسع والخبير والعزيز والحكيم أما الجبار والمتكبر فإن كل صفة منهما تعد حسنى في حق الله ومذمومة في حق العبد لأنه غير مستحقٍ لها .

الأمر الثاني :

أن تكون كل صفة من هذه الصفات الحسنى قد بلغت أعلى المراتب على الإطلاق وهكذا هي صفات الله يقول تعالى ﴿ **وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [1] ويقول ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ [2] ويقول ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ [3] فهو سبحانه العظيم والأعلى في كل صفة من صفاته الحسنى فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتخيل صفة وقدر نعيم الجنة وهي مخلوقة فإن عليه أن يعلم بأن كل صفة من صفات الإله لا نهاية لعلوها وعظمتها ولا يستطيع أن يتخيلها بعقله فإذا تحدثنا عن صفة القدرة فهو على كل شيء قدير ، وإذا تحدثنا عن صفة العلم فهو بكل شيءٍ عليم لا يغيب عن علمه وسمعه وبصره قدر مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أدنى من ذلك ولا أكبر ، وإذا تحدثنا عن صفة الغنى فهو الذي لا تنفد خزائنه ، وهكذا سائر صفاته الأخرى .

الأمر الثالث :

أن تكون صفات الإلوهية ملازمة لذات الإله الحق لا تنفك عنه ولا يتصور

---

(١) آية ٢٧ الروم (٢) آية ٩٦ الواقعة (٣) آية ١ الأعلى

الإله بدونها وهذه العبارة تندرج تحتها ثلاثة أمور :-

١ - صفات الإله يجب أن تكون متأصلة وقديمة بقدمه وليست مكتسبة ولا مستحدثة فالجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ولكنها جميعاً حقوق مكتسبة من الإله وليست متأصلة فإذا أطلقنا الصفة وقلنا من الحق ؟ كان الإله وهو الله وحده هو الحق ، وهكذا قد يوصف المخلوق بأنه قوي أو غني أو حي أو كبير أو عظيم أو سميع أو بصير أو عليم أو حكيم أو خبير ولكنها صفات مكتسبة فإذا أطلقنا الصفة وقلنا من القوي ؟ من الغني ؟ من الحي ؟ من الكبير ؟ من العظيم ؟ من السميع ؟ من البصير ؟ من العليم ؟ من الحكيم ؟ من الخبير ؟ صارت الصفة إسماً ملازماً لصاحبها لا تنفك عنه وانصرف المعنى إلى الله وحده المنفرد بالإلوهية دون غيره .

٢ - صفات الإله يجب أن تكون ذاتية وليست خارجة عن ذاته ، فالإنسان قد يصير غنياً بماله وقوياً بالغذاء أو السلاح أو الأعوان وعظيماً بمنصبه وهذه جميعها أشياء خارجة عن ذات الإنسان فإذا تجرد منها صار فقيراً وضعيفاً وحقيراً لا حول له ولا قوة ، أما الإله فإنه قوي في ذاته وغني في ذاته وعظيم في ذاته فهو قائم بذاته وغني عن مخلوقاته وهكذا الله سبحانه وتعالى الغني الحميد كما تشهد بذلك الآيات القرآنية والأحاديث القدسية والأحاديث النبوية الشريفة وهي من الكثرة بحيث يتعذر حصرها وكما يشهد بذلك العقل السليم والفطرة السليمة والتأمل في آيات الله الكونية .

٣ - صفات الإله يجب أن تكون باقية ببقائه ودائمة بدوامه وليست من العوارض التي قد تتغير أو تتبدل فالإنسان القوي قد يصاب بالمرض أو الشيخوخة أو يجرد من السلاح والأعوان فيصبح ضعيفاً ، والغني قد يجرد من المال فيصبح فقيراً ، والعاقل قد يصاب بالجنون في عقله فيصبح مجنوناً ، والعالم قد يصاب بفقدان الذاكرة فيصبح جاهلاً ، فإذا لم يحدث ذلك كله مات ففقد بموته جميع

صفاته . أما الإله فإنه منزه عن أن تعتري صفاته أي زوال أو نقصان وهكذا الله .

إن الله عز وجل قد وصف نفسه بأنه القوي ولم يقل الأقوى ، وبأنه الغني ولم يقل الأغنى ، وبأنه العظيم ولم يقل الأعظم ، وبأنه العليم ولم يقل الأعلم ، وبأنه الكبير ولم يقل الأكبر وهكذا في جميع صفاته والسبب في ذلك يعود إلى أمرين **أولهما** حتى يوحي اللفظ بأنه إسم وليس مجرد صفة لأن الاسم يكون ثابتاً وباقياً ببقاء صاحبه ودائماً بدوامه لا يتغير ولا يتبدل **وثانيهما** لأن الله عز وجل لو وصف نفسه بأنه الأقوى والأغنى والأعظم والأعلم والأكبر لفهم من ذلك بأنه إقرار من الله عز وجل بأن من عباده من هو قوي في ذاته ولكن الله أقوى منه ، وغني في ذاته ولكن الله أغنى منه ، وعظيم في ذاته ولكن الله أعظم منه ، وعليم في ذاته ولكن الله أعلم منه ، وكبير في ذاته ولكن الله أكبر منه وهذا بلاشك مخالف للحقيقة لأن صفات العباد ما هي إلا منحة مؤقتة وهبها الله وأعارها لهم ثم ينزعها منهم متى شاء ، فالله سبحانه وتعالى عندما يصف نفسه بأنه الغني فمعنى ذلك أن ماعداه فقير ، وعندما يصف نفسه بأنه عظيم فمعنى ذلك أن ماعداه حقير ، وهكذا في سائر الصفات وذلك لأن الأصل أن المخلوقات جميعها لا حول لها ولا قوة ومحتاجة لخالقها لكي يمدها بمقومات حياتها أما الله سبحانه وتعالى فهو القائم بذاته الغني عن عباده .

يقول تعالى ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد** ﴾ [١] ويقول ﴿ **يسأله من في السموات والأرض كل يومٍ هو في شأن** ﴾ [٢] ويقول ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ [٣] وفي الحديث القدسي يقول تعالى (ياعبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، ياعبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، ياعبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم) [٤] .

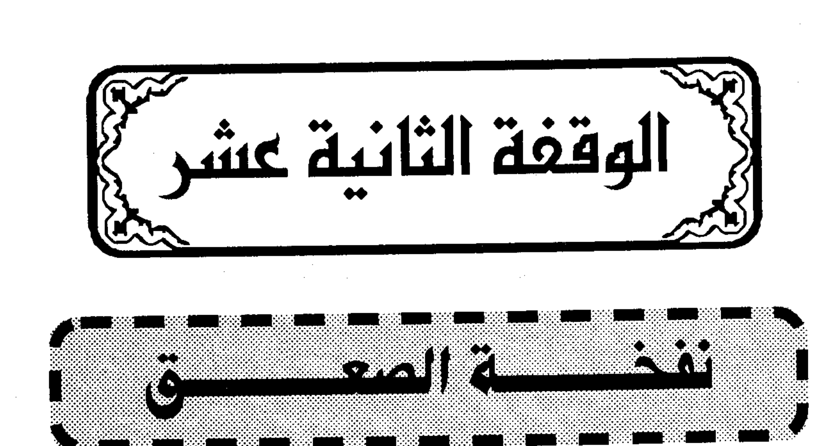
---

(١) آيتي ١ ، ٢ الإخلاص (٢) آية ٢٩ الرحمن (٣) آية ٥٣ النحل (٤) رواه مسلم

خلاصة هذه الأمور الثلاثة السابق ذكرها والمتوفرة في صفات الله وحده الإله الحق المبين أن يقال (سبحان الله) أي ننزهه عما لا يليق بجلاله ، فإذا قيل لك كما قالت اليهود أن الله فقير فقل (سبحان الله) فإن صفاته جميعها حسنى وهذا هو **الأمر الأول** ، وإذا قيل لك أن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزئيات كما قالت بعض المذاهب المنحرفة أي أن صفات الله محدودة لها حد أقصى لعظمتها لا تزيد عنه فقل (سبحان الله) فإن الله بكل شيءٍ عليم وإن صفاته لا نهاية لعلوها وعظمتها ولا يستطيع ان يتخيلها الإنسان بعقله وهذا هو **الأمر الثاني** ، وإذا قيل لك أن صفات الله مكتسبة ومستحدثة وليست قديمة بقدمه فقل (سبحان الله) إن الله كان منذ الأزل ولم يزل عليماً حكيماً سميعاً بصيراً عظيماً جليلاً كبيراً خبيراً قوياً عزيزاً غنياً قادراً حياً جباراً متكبراً وإن صفاته قديمة بقدمه وباقية ببقائه ودائمة بدوامه لا تنفك عنه لأنها صفات متأصلة في ذاته إذ لا يتصور الإله بدونها وهذا هو **الأمر الثالث** ﴿ **فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[1] .

---

(١) آية ٢٢ الأنبياء


الوقفة الثانية عشر
نفخة الصعق

الوقفة الثانية عشر

نفخـــــة الصعـــق

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في الكتاب الرابع مشاهد يوم القيامة من سلسلة معجزة القرآن الفصل الرابع الصفحات من ٩٥ حتى ٩٧ في تفسيره لقوله تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ (١) أن النفر من بني إسرائيل الذين صُعقوا عندما سألوا موسى أن يروا ربهم جهرة كما جاء في قوله تعالى ﴿ **وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون** ﴾ (٢) ، وكذلك الجبل الذي تجلى الله له فأصابته الصاعقة فدك دكاً وكذلك موسى عليه السلام الذي خر صعقاً بعد أن رأى ما حل بالجبل كما جاء في قوله تعالى ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً** ﴾ (٣) ، وكذلك من أخذتهم الصاعقة من قوم عاد وثمود وجميع من صعقوا في الدنيا هؤلاء جميعاً لن تصيبهم صاعقة يوم القيامة ويشملهم الإستثناء في قوله تعالى ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ .

أرى كما ذكرت كتب التفاسير أن الإستثناء في قوله تعالى ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله** ﴾ يُقصد به الأحياء قبيل حدوث نفخة الصعق ولا يقصد به الأموات وذلك لأن نفخة الصعق هي نفخة الإماتة فكيف يمت من كان ميتاً قبل وأثناء حدوث هذه النفخة ؟! يدل على ذلك قول النبي ﷺ عن هذه النفخة وما يترتب عليها من الموت والدمار للكون وساكنيه (الأموات لا يعلمون بشيءٍ من ذلك) .

بناء على ذلك فإن جميع الموتى بما فيهم الأنبياء والشهداء لا يحسون

(١) آية ٦٨ الزمر (٢) آية ٥٥ البقرة (٣) آية ١٤٣ الأعراف

ولا يشعرون بنفخة الصعق ولا تشملهم الآية الكريمة باعتبار أنهم جميعاً ذاقوا الموت يقول تعالى ﴿ **كل نفسٍ ذائقة الموت** ﴾ [1] ويقول لنبيه ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ [2] .

أما إذا اعتبرنا أن الشهداء أحياهم الله بعد أن أذاقهم الموت فهم أحياء عند ربهم يرزقون لقوله تعالى ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ [3] وأيضاً ما ورد في شأن الأنبياء بأنهم أحياء في قبورهم بعد أن ذاقوا الموت فإنه من الممكن في هذه الحالة أن يكونوا ضمن المعنيين بالإستثناء في قوله تعالى ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ أى لا يصعقون .

أما الأحياء وقت نفخة الصعق الذين ورد أنهم لا يصعقون وهم معنيون دون أدنى شك بقوله تعالى ﴿ **إلا من شاء الله** ﴾ فهم ملك الموت وإسرافيل الذي ينفخ في الصور نفخة الصعق فلا يصعق بها بديهة وجبرائيل وميكائيل وحملة العرش فهؤلاء جميعاً لا يصعقون ولكنهم يموتون بعد ذلك بقبض أرواحهم ثم يحييهم الله قبل نفخة البعث .

---

(١) آية ١٨٥ آل عمران (٢) آية ٣٠ الزمر (٣) آية ١٦٩ آل عمران

الوقفة الثالثة عشر

القول بأن النفس هي إلتقاء الروح بالجسد

الوقفة الثالثة عشر

القــول بــأن النفــس هــي إلتقــاء الروح بالجســـد

ذكر فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في الكتاب الرابع مشاهد يوم القيامة من سلسلة معجزة القرآن الفصل الخامس صفحة رقم ١٣٦ أن النفس هي إلتقاء الروح بالجسد .

أرى أن نفس الإنسان هي ذاته المحبوسة داخل هذا الجسد أي أنها جوهر مستقل عن الجسد ، ونفس الإنسان مرتبطة إرتباطاً شديداً بروحه لا تنفك عنها فالروح تسكن النفس ، والنفس وبداخلها الروح تسكن الجسد فإذا فارقت النفس الجسد الذي كانت تسكنه خرجت معها الروح وذلك هو الموت ، ولذلك إذا قيل بأن الموت هو مغادرة الروح للجسد أو مغادرة النفس للجسد أو قبض الروح أو قبض النفس فجميع هذه المعاني صحيحة برغم أن الروح ليست هي النفس ، فالروح هي التي تبعث الحياة في الجسد فتتحرك أعضاؤه وتنمو خلاياه وتقوم أجهزته بوظائفها كما أن الروح تعطي للنفس الطاقة على فعل ما تريد ، فالروح تعتبر في تأثيرها أشبه ما تكون بالكهرباء التي تسري في الأشياء فتحركها وتشغلها وتمدها بالطاقة ، أما النفس فإنها توجه هذا الجسد المتحرك إلي ما تريد من الخير أو الشر فإن كانت نفساً زكية مطمئنة تقية وجهته إلى فعل الخيرات ، وإن كانت نفساً خبيثة فاجرة أمارة بالسوء وجهته إلى فعل الشر والشهوات المحرمة ، وإن كانت نفساً لوامة وجهته تارة إلى الشر وتارة إلى الخير .

كل ذلك نجده في قوله تعالى ﴿ **ونفسٍ وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ [1] ، ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ [2] .

---

(١) الآيات من ٧ حتى ١٠ الشمس (٢) آية ٤٢ الزمر

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي أن ملك الموت إذا أراد أن يقبض نفس المؤمن خاطبها قائلاً (يا أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان) وإذا أراد أن يقبض نفس الكافر خاطبها قائلاً (يا أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب) فالنفس هي التي تخرج وليس الجسد ومصداق ذلك قوله تعالى ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة ، ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ [1] ، ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ [2] .

كل ذلك دليل على أن النفس لها كيان مستقل داخل الجسد وليست وليدة إلتقاء الروح بالجسد .

والنفس البشرية وهي ذات الإنسان تملك جميع الحواس فهي تسمع وترى وتشم وتحس وتتنعم وتتألم وتفكر ولكن عندما أودعها الله هذا الجسد أصبحت محكومة بقانون هذا الجسد فهي ترى بالعين فالعين لا ترى بذاتها بل النفس هي التي ترى أما العين فهي مجرد أداة للرؤية ترى النفس عن طريقها وقد كانت رؤية النفس غير محدودة ترى لمسافات بعيدة العالم العلوي والسفلي والغيبي والمادي والمرئى وغير المرئى كل ذلك قبل أن توضع في هذا الجسد فلما وضعت فيه حجبت بهذا الجسد وصارت رؤيتها محدودة وفقاً للإمكانيات المادية المحدودة لهذا الجسد وهكذا السمع والشم والحس والتذوق يقال عنهم نفس ماقيل عن الرؤية .

ونفس الإنسان تستطيع بمساعدة الروح أن تطير في كل مكان وتسبح في الفضاء ولكنها داخل الجسد محبوسة ومحكومة بقانون الجسد المادي فإذا غادرت النفس الجسد عادت إليها حواسها القوية غير المحدودة وأصبحت تسمع وترى كل شيء غيبي غاب عن إدراكها يقول تعالى ﴿ **وجاءت كل نفسٍ معها سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ [3] فالجسد غطاء للنفس وبعد مغادرة النفس للجسد صار في

(١) آيتي ٢٧ ، ٢٨ الفجر (٢) آية ١٦ ق (٣) آيتي ٢١ ، ٢٢ ق

مقدور النفس بمساعدة الروح أن تتنقل وتسبح في الفضاء بسرعة مذهلة .

والروح كما ذكرنا هي مصدر الحياة في الجسد تحرك أعضاءه وتشغل أجهزته وتبني خلاياه فإذا حدث الموت وغادرت الروح الجسد سكنت أعضاؤه وتوقفت أجهزته ومنها القلب عن النبض وبدأت الخلايا تنهار وتتفكك حتى تصير تراباً كمثل العمارة التي تنهار وتتساقط ، والروح أيضاً هي التي تحرك النفس داخل الجسد وتمدها بالحياة لتزاول مهمتها ولولا الروح لكانت النفس ميتة لا تدرك ولا تشتهي ولا تستطيع توجيه أعضاء الجسد ناحية الخير أو الشر ولو فارقت الروح النفس بعد الموت لصارت النفس ميتة بلا إدراك لا ترى ولا تسمع ما حولها ولا تتحرك ولا تحس بالنعيم ولا العذاب في حياة البرزخ ولا يوم القيامة في الجنة أو في النار من أجل ذلك كان لابد للروح ألا تفارق النفس بعد مغادرتهما للجسد وأن تظل مرتبطة بها أبد الآبدين .

ونفس الإنسان هي ذاته وهي التي تحاسب وهي التي تنعم أو تعذب لأنها هي التي وجهت أعضاء جسده لفعل الخير أو الشر ، أما الجسد فليس هو المقصود بالعذاب أو النعيم لأنه مكره ومُسَيَّر وفق إرادة النفس لا اختيار له في ذلك ، وكذلك الروح ليست هي المقصودة بالعذاب أو النعيم لأنها أمدت النفس والجسد بالطاقة والحركة والحياة ولم تجبرهما على فعل الشر أو الخير ، لذلك لا ينبغي أن يقال روح خيّرة وروح شريرة أو روح مطمئنة وروح أمارة بالسوء أو روح مؤمنة وروح كافرة وإنما يقال نفس مطمئنة ونفس أمارة بالسوء أو نفس طيبة ونفس خبيثة أو نفس مؤمنة ونفس كافرة . ولكن لا مانع من أن يقال روح المؤمن وروح الكافر أي الروح المركبة في المؤمن والروح المركبة في الكافر لأن الإيمان والكفر لا يُعَدَّان وصفاً للروح وإنما للنفس التي تسكنها الروح .

وبعد أن تفارق النفس المؤمنة الجسد ومعها الروح تعرج إلى ربها حيث تفتح لها أبواب السموات السبع ثم تعاد إلى القبر فيسألها الملكان منكر ونكير ثم

يُذهَبُ بها إلى عليين وهو مكان في الجنة وقيل في السماء السابعة تجتمع فيه النفوس المؤمنة حيث تتعارف وتتحدث وتُعرض عليها أعمال أهاليها في الدنيا فإن كانت صالحة فرحوا وإن كانت غير صالحة حزنوا وتمنوا لهم الهداية والمغفرة وقد تلتقي نفس الميت بنفس الحي فيراه في منامه ، وتنطلق النفس المؤمنة في عالمٍ واسعٍ رحب وترى من موضعها مكانها وقصورها في الجنة ولذلك إذا دخل الرجل المؤمن الجنة يوم القيامة تعرَّف على مكانه بها لأنه سبق أن رأى ذلك في عالَمِ البرزخ يقول تعالى ﴿ **ويُدخلهم الجنة عرَّفها لهم** ﴾ [(١)] ، ويظل المؤمن طوال حياة البرزخ في ارتباط بين نفسه في عليين وجسده في القبر فما تراه نفسه وتسمعه وتشمه في عليين يُنقل له في قبره فيرى مقعده من الجنة ويأتيه من روحها وريحانها ويسمع من أصواتها وكأن الجنة قد نُقلت إليه في قبره فصار القبر روضة من رياض الجنة ويُضاءُ عليه في قبره ويُوسَعُ له فيه فيقول ربِ أقم الساعة لعلي أرجع إلى أهلي ومالي (أي في الجنة) .

أما الكافر فإن نفسه إذا غادرت الجسد ومعها الروح تعرج إلى السماء الدنيا فلا يفتح لها بابها وترد إلى قبره فيسأله الملكان منكر ونكير ثم يُذهب به إلى سجين بالأرض السفلى حيث الحميم فتُسجن نفسه وروحه في مكانٍ حار ملتهب أضيق من الجسد الذي كان محبوساً فيه في الدنيا ، ولفظ الحميم اشتق منه الحِمَمْ وهي النار الملتهبة التي تكون عادة في جوف الأرض يقول تعالى ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين ، فنُزُلٌ من حميم وتصلية جحيم** ﴾ [(٢)] فالحميم هو المنزل المُعَدُ لنفس الكافر في حياة البرزخ أما الجحيم فهي نار جهنم التي يصلاها يوم القيامة ، وجهنم قيل أنها أيضاً بالأرض السفلى يؤتى بها يوم القيامة لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها كما ورد ذلك عن رسول الله ﷺ .

ويظل الكافر طوال حياة البرزخ في ارتباط بين نفسه في سجين وجسده في

(١) آية ٦ محمد (٢ آيتي ٩٢ ، ٩٣ الواقعة

القبر فما تراه وتحسه نفسه يُنقل له في قبره فيرى مقعده من النار الذي سيؤول إليه يوم القيامة لأن نفسه وهي في سجين ترى ذلك ويأتيه من حرها وخبث ريحها فيصبح قبره حفرة من حفر النار، وكما أن نفسه محبوسة في مكانٍ ضيق فإنه يشعر بأن قبره قد ضاق عليه حتى اعتصره فيقول ربِ لا تقم الساعة ، كما ينقل إلي نفس الكافر العذاب الذي يتعرض له جسده في القبر على أيدي الملائكة الموكلين بتعذيبه والنار التي تشتعل في جسده فتزداد نفسه عذاباً فوق العذاب .

وحقيقة الإنسان كما ذكرنا هي نفسه وليست جسده ولولا أن الله أراد أن يبرهن للكافر أنه قادر على إعادة جسده كما هو بعد أن صار تراباً وتفرق وتشتت في كل مكان ، ولولا أنه عَلِمَ أن الكافر أو العاصي سيجادل وينكر أعماله الأمر الذي يتطلب أن تشهد عليه أعضاء جسده ، لولا ذلك لبعثه في أي جسد .

وإذا أمر الله بعبده إلي النار فإنه ما يكاد يقترب منها ويمسَّه نفحة من نفحاتها أو شرارة منها إلا ويتساقط لحم جسده من شدة حرارتها يقول تعالى ﴿ **ولئن مسَّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولُنَّ يا ويلنا إنا كنا ظالمين** ﴾ [1] ، ﴿ **إنها ترمي بشررٍ كالقصر ، كأنه جِمَالَتٌ صُفْرٌ** ﴾ [2] يتطاير الشرر من لهيبها فتكون الشرارة الواحدة في حجم القصر وبذلك يتلاشى جسده الدنيوي الذي بُعث به فإذا دخل النار عَظُمَ خَلْقه حتى يكون ضرسُه مثل جبل أُحد وسمك جلده سبعين ذراعاً طول النخلة وكلما احترق جلده في النار أبدله الله جلداً غيره ولو كان الجسد هو المقصود بالتعذيب لأعاد الله له جلده الذي احترق أو لجعله يُعَذَّب في النار بجسده الدنيوي ولكن المقصود بالتعذيب هي نفسه المركبة داخل أي جسد من هذه الاجساد التي تحترق وتتبدل بأجساد أخرى وكأن هذه الاجساد والجلود أدوات تتناوب عليه لتعذيبه ، يقول تعالى ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ [3] ولو كان التعذيب للجلود لقال الله (لتذوق العذاب)

(١) آية ٤٦ الأنبياء (٢) آيتي ٣٢ ، ٣٣ المرسلات (٣) آية ٥٦ النساء

ولكن العذاب للنفوس ولذلك قال تعالى ﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ ، وكذلك إذا دخل الرجل الجنة لا يدخلها بجسده الدنيوي الذي بُعث فيه وإنما تُركبُ نفسه في جسدٍ آخر طوله ستون أو سبعون ذراعاً بطول النخلة في صورة جميلة على صورة القمر ليلة البدر أو على أشد كوكب دُري في السماء إضاءة يقول تعالى ﴿ **وننشئكم في مالا تعلمون** ﴾ [1] فالإنسان حقيقته هي نفسه ولذلك لا يضره إذا دخل الجنة أن تركب نفسه في أي جسد آخر لأن النفس هي المقصودة بالتمتع ولكن الله أنشأ لأهل الجنة أجساداً تُزيد نفوسهم متعة ولا تحجب عنها سماع أو رؤية اللا محدود من هذا العالم الغيبي الشاسع وفي الحديث (إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه)[2] .

والروح تصاحب النفس في الجنة أو في النار لأن النفس لن تشعر بلذة التمتع ولا بألم التعذيب إلا بها ، وإذا قلنا أن الجلود بالنسبة لأهل النار لا تُعَذَّب وإنما هي أداة تعذيب لأن بها مراكز الحس فكذلك الروح لا تُعَذَّب وإنما هي أداة تعذيب فهي ترتبط إرتباطاً خفيفاً بنفس الكافر فلا هي مندمجة بها فتعذب معها ولا هي منفكة عنها فتنجو النفس من الإحساس بالألم ، وتتمنى نفس الكافر أن تفارقها الروح حتى تموت وتستريح من الألم ولكن الروح لا تفارقها ، يقول تعالى ﴿ **ونادَوا يامالكُ ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ [3] ، ﴿ **لا يموت فيها ولا يحيا** ﴾[4] ، ﴿ **ويأتيه الموتُ من كلِ مكانٍ وما هو بميتٍ ومن ورائه عذابٌ غليظ** ﴾[5] .

وهنا يأتي السؤال .. إذا كانت نفس الإنسان هي ذاته وحقيقته فلماذا يجعل الله نفس الإنسان داخل جسده سواء في حياة البرزخ أو في النار أو في الجنة ؟

السبب في ذلك إمعاناً له في العذاب أو التمتع لأن النفس لا تذوق طعم

---

(١) آية ٦١ الواقعة
(٢) رواه أحمد وأبو يعلي والطبراني
(٣) آية ٧٧ الزخرف
(٤) آية ١٣ الأعلى
(٥) آية ١٧ إبراهيم

العذاب ولا طعم لذة التمتع إلا وهي داخل الجسد أماخارجه فإن الأمر يقتصر على الإحساس فقط وليس التذوق وذلك لأن الجسد يكون أداة لتعذيب النفس أو لإمتاعها ولنضرب مثلاً على ذلك هل يستوي إحساس النفس في منامها بالإختناق أو بالإحتراق أو بلذة الإرتواء أو بلذة الطعام بإحساسها في ساعات اليقظة عندما يحترق الجسد الذي تسكنه حقيقة أو يختنق بفعل الحرق أو الغرق أو بيد مجرم تَقْبِض على رقبته فيعاني من سكرات الموت أو عندما تتلذذ النفس بالماء البارد فيرويها بعد طول ظمأ أو بالطعام الشهي فتلتهمه بعد طول جوع ؟ بالطبع إذا كانت النفس داخل الجسد فإن هذا العذاب أو النعيم لن يكون مجرد إحساس بل تذوق ومعايشة ولذلك يقول تعالى ﴿ **كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت** ﴾[1] فهي لم تذقه إلا لكونها داخل الجسد ، ويقول عن النار ﴿ **ونقول ذوقوا عذابَ الحريق** ﴾[2] ، ﴿ **وقيل لهم ذوقوا عذابَ النارِ الذي كنتم به تكذبون** ﴾[3] ، ﴿ **فَلَنُذِيقَنَّ الذين كفروا عذاباً شديدا** ﴾[4] .

وأشد ما تكون الروح إرتباطاً بنفس المؤمن وهو في الجنة فيشعر بنشوة الحياة الحقيقية والحيوية والنشاط تدب في كل ذرة من جسده ولو سقط من مكانٍ عالٍ أو قُطع جسده نصفين لم يمت ولم يذق طعم الموت بل يكتمل جسده من جديد في التو واللحظة شأن الطائر الذي يأكله الرجل من أهل الجنة حتى إذا فرغ من أكله عاد كما كان فليس في الجنة موت يقول تعالى ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾[5] .

ولكون النفس تتألم مما يصاب به الجسد من الموت أو المرض أو الجوع أو العطش فإن أجساد أهل الجنة لا تصاب بتلك الآفات لتظل نفوسهم سعيدة ومتنعمة .

---

(١) آية ١٨٥ آل عمران
(٢) آية ١٨١ آل عمران
(٣) آية ٢٠ السجدة
(٤) آية ٢٧ فصلت
(٥) آية ٦٤ العنكبوت

الوقفة الرابعة عشر

الإفتتان بالحضارة البشرية المعاصرة

الوقفة الرابعة عشر

الإفتتان بالحضارة البشرية المعاصرة

بعض الأشخاص من المفتونين بالإنجاز الحضاري المعاصر يضاهون بين ما أسموه إبداع الإنسان المعاصر وتخليقه للأشياء في شتى المجالات وبين إبداع الله وتخليقه للأشياء في نفس المجالات .

والخالق هو الذي خلق الأشياء من العدم أما البديع فهو الذي بالإضافة إلى تخليقه للأشياء من العدم فإنه قد أوجده على غير مثال سابق ، وهذان الوصفان ملكاً لله تعالى وحده ولا ينبغي للإنسان أن يتصف بهما ، أقصى ما يوصف به الإنسان العصري أنه مبتكر أو مخترع أو مستكشف اكتشف بعضاً من أسرار العلم الدنيوي الذي خلقه الله وأودعه هذا الكون فلما انكشف له ذلك ابتكر واخترع أشياءً جديدة لم يألفها الناس تسير وفقاً لهذه النواميس العلمية الكونية مستخدماً في ذلك ما خلقه الله من المواد الأولية وانطلاقاً من هذا المعنى يجوز أن يطلق على الإنسان لفظ (مبتكر) أو (مخترع) .

إن المكتشفين لبعض القوانين العلمية الكونية التي مهدت الطريق لهم ولغيرهم على تحقيق الكثير من الإختراعات والإنجازات الحضارية يزعمون أنهم قد اكتشفوها بالصدفة بينما الله عز وجل هو الذي كشفها لهم وأذن لهم في ذلك يقول تعالى ﴿ **عَلَّمَ الإنسان مالم يعلم** ﴾ [1] ويقول ﴿ **ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء** ﴾[2] .

إن هذا التطور العلمي في مجال المواصلات والإتصالات لم يحدث إلا بعد

---

(١) آية ٥ العلق (٢) آية ٢٥٥ البقرة

مجيء الدين الخاتم الذي لا يقبل الله عنه بديلاً والنبي الخاتم الذي لا نبي بعده المرسل إلي شعوب الأرض جميعاً ، وهذا التطور لحكمة إلهية حتى يسهل نقل تعاليم الإسلام وأقوال نبيه الكريم إلى كافة شعوب الأرض وبذلك يعرفون بمجيء هذا الدين والنبي الخاتم فيتبعونه أما من أبى فقد أقيمت عليه الحجة .

ومن الحكم الإلهية أيضاً ابتلاء الناس بهذا العلم فمنهم من يستعمله في الخير ومنهم من يستعمله في الشر ومنهم من يزيده العلم إيماناً بربه ومنهم من يزيده العلم كفراً وتكبراً واغتراراً معتقداً أنه مَلَكَ بعلمهِ مفاتيح الأرض وكنوزها يقول تعالى ﴿ **حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس** ﴾ [1] .

إذَن فالمكتشفون والمخترعون لم يأتوا بالعلم ولكنهم أوتوه أي حصلوا عليه من الله يدل على ذلك قوله تعالى ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ [2] وقوله تعالى ﴿ **قال الذين أوتوا العلم** ﴾ [3] .

إن ثمة ثلاثة عوامل أساسية كانت وراء أي اختراع أو إنجاز حضاري وهذه العوامل هي :-

أولاً:

لولا أن الله أتقن الكون وخلق له قوانينه ونواميسه العلمية ما حدث أي اختراع أو إنجاز في أي مجال من مجالات الحياة .

ثانياً:

لولا أن الله كشف بعضاً من أسرار هذه القوانين والنواميس العلمية للإنسان لحكمة أرادها وعَلَّمَهُ ما لم يكن يعلم وأذن بأن يحيط الإنسانُ بشيءٍ من علمه فما

(١) آية ٢٤ يونس (٢) آية ٨٥ الإسراء (٣) آية ٢٧ النحل

من شيء يحدث في ملك الله إلا بإذن الله ومشيئته ، لولا ذلك ما حدث أى اختراع أو إنجاز في أي مجال من مجالات الحياة يقول تعالى ﴿ **سنُريهم ءاياتِنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾ [(١)]

ثالثاً:

لولا أن الله خلق للإنسان المواد الأولية من المعادن الصلبة والسوائل والغازات التي سيستخدمها في تنفيذ هذا الإختراع أو الابتكار وفق القوانين العلمية التي اكتسبها ، لولا ذلك ما استطاع تنفيذ أي اختراع أو أى إنجاز في أي مجال من مجالات الحياة .

إذا كان الأمر كذلك فأي فضل للإنسان في هذا الإختراع حتى يتعالى ويطغى ويتكبر سوى أنه بذل بعض الجهد والصبر والمال علماً بأن ماله وجسده وصحته وحياته وعقله وقلبه هي من خَلْق الله ونعمه التي لا تحصى فالفضل كله لله ونحن وما نملك والكون جميعاً ملكاً لله .

ومادام أن الإنسان يستخدم في إختراعه المواد الأولية التي خلقها الله ولا يستطيع الإدعاء بأنه خلقها من العدم فإن الإنسان بهذا المعنى صانع وليس خالق وتسمى هذه العملية تصنيع وليس تخليق .

ولقد جاء لفظ (خالق) أو مشتقاته في القرآن الكريم بمعنيين المعنى الحقيقي وقُصد به موجد الشيء من العدم وذلك في مثل قوله تعالى ﴿ **الله خالق كل شيء وهو على كل شيءٍ وكيل** ﴾ [(٢)] فالآية تتضمن إثبات الصفة لله ونفيها عن كل ما سواه ، والمعنى المجازي وقُصد به الصانع الذي يصنع الشيء من مادة معينة كالطين مثلاً وذلك في مثل قوله تعالى ﴿ **وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني** ﴾[(٣)] ، ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [(٤)] فهو أحسن الخالقين أي أحسن

---

(١) آية ٥٣ فصلت (٢) آية ٦٢ الزمر (٣) آية ١١٠ المائدة (٤) آية ١٤ المؤمنون

الصانعين أو الصناع لأنه أتقن الصنعة يقول تعالى ﴿ **صُنْعَ اللهِ الذي أتقن كل شيء** ﴾ [1] .

والإنسان في كل مرة يريد أن يحقق فيها إنجازاً يقدم أقصى ما عنده من العلم والقدرة ومع ذلك لا يُعَدُ هذا الإنجاز هو قمة التطور على الإطلاق ولكنه أقصى ما توصل إليه العلم البشري بدليل أن ما أنجزه الإنسان اليوم يطوره غداً وهذا دليل على أن البشرية لم ولن تصل إلى منتهى العلم بل إلى القليل منه مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ [2] وسيظل الحال هكذا حتى تقوم الساعة ، فلن تحقق البشرية قمة وذروة الإنجاز في أي مجال من المجالات والسبب في ذلك أن الإنسان كما أنه مقهور ومغلوب على أمره في شكله وتكوينه والظواهر الكونية التي من حوله لا يملك تغييرها فهو أيضا في مجال نشاطه الإرادي وحريته الإختيارية في مجال العلم والإبتكار له حد أقصى لا يستطيع أن يتجاوزه فقد خلق الله له عقلاً له طاقة إستيعاب محدودة وأمده بالعلم المحدود وهذا العلم مستمد من النواميس والقوانين العلمية الدنيوية المحدودة يقول تعالى ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ [3] فكيف لهذا الإنسان أن يبلغ القمة والذروة في أي إنجاز ؟ إن القادر على ذلك هو الله الذي يملك القدرة المطلقة والعلم الكامل اللامحدود فلا نهاية لقدرته ولا لعلمه .

وإذا كانت البشرية تقدم في دنياها أقصى ما عندها لتحقيق إنجازاتها فإن الله القادر على كل شيء العليم بكل شيء لم يقدم في الحياة الدنيا أقصى ما عنده لتحقيق الإنجازات الإلهية برغم عجز البشرية عن الإتيان بمثلها أو بخلق ذبابة واحدة كما ذكر القرآن الكريم وماذاك إلا لأن الله خلقها لتكون مؤقتة تزول بزوال الدنيا أما الحياة الآخرة فلا يزال عند الله الكثير والكثير من الإبداعات التي ادخرها لعباده المؤمنين في الجنة دار المقام والمستقر فإن فيها مالا عين رأت ولا أذن

(١) آية ٨٨ النمل (٢) آية ٨٥ الإسراء (٣) آية ٧ الروم

سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كلما جاء رمضان من كل عام تزيَّنت وعندما يدخلها المؤمنون فإنها في كل مرة تهب عليها الرياح من تحت العرش تزداد جمالاً فوق جمالها وتظل على ذلك أبد الآبدين فسبحان من لا نهاية لقدرته .

والعرش أجمل من الجنة لأنه سماء الجنة والسماء دائماً تكون أجمل من الأرض والله لا منتهى لجماله وأهل الجنة في كل مرة ينظرون فيها إلي خالقهم يعودون إلى أزواجهم وهم أشد جمالاً مما سبق ويظل جمالهم في تزايد أبد الآبدين بلا توقف ، وجميع متع ولذات الجنة في زيادة مطردة يقول تعالى ﴿ **إنَّ هذا لرزقنا ما له من نفاد** ﴾ [1] ، ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ [2] ، معنى ذلك أنه حتى الجنة لم يقدم فيها الإله أقصى ما عنده لأنه في كل مرة تزيد فيها النعمة فهو قادر على زيادتها أكثر وأكثر بلا توقف فهو سبحانه على كل شيءٍ قدير .

لذلك فإنني لستُ مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيما ذكره في كتابه الرابع مشاهد يوم القيامة من سلسلة معجزة القرآن الكريم الفصل الخامس صفحتي ١٣٩ ، ١٤٠ من وصفه للقدرة البشرية على تسجيل فيلم سينمائى لحياة الإنسان بالصوت والصورة على أنه قمة الإنجاز والحجة الدامغة التي إذا تم مواجهة المجرم بها يوم القيامة لا يستطيع الإنكار وقول فضيلته ألا يستطيع الله أن يفعل ذلك ؟

هذه المقولة سبق لي الرد عليها ولكنني هنا أتناول هذا الموضوع من زاوية أخرى فإن عرض صور الأشياء ليس هو قمة الإنجاز وإنما عرض الأشياء بشخوصها هو قمة الإنجاز وهذا مالا يقدر عليه إلا الله ، فالله جَلَّت قدرته عندما أراد أن يُري نبيه محمد ﷺ المسجد الأقصى ليصفه للناس أزال ما بين نبيه وبين المسجد الأقصى من الحجب التي تمنع الرؤية وقَرَّب المسافة بينهما فجعل ينظر إليه من

(١) آية ٥٤ ص (٢) آية ٣٥ ق

مكانه نظرة حقيقية كأنه أمامه فوصفه وصفاً دقيقاً من الخارج ومن الداخل فأدهش من حوله ، ورفع الله لرجلٍ في أرض المحشر قصراً جميلاً فرآه مكانه قال الله له إنه لك إن عفوت عن أخيك فعفي عنه ، والرجل في الجنة يرى الرجل في النار وهو يعذب برغم بعد ما بينهما من مسافة هذه جنة عالية والأخرى هاوية يقول تعالى ﴿ **فاطّلع فرءاه في سواء الجحيم** ﴾ [1] ثم يكلمه فيسمعه .

والإنسان في الجنة لا يحتاج إلى أقمار صناعية وتليفزيونات وفيديوهات وأدشاش وإريالات ليرى صور الأشياء وأصواتها ولكنه إذا اشتهى أن يرى إنساناً في الجنة يبعد عنه أكثر مما بين السماء والأرض أزيلت الحجب فرآه في مكانه من موضعه الذي هو فيه فإذا أراد أن يلتقي به حُمل إليه في أقل من لمح البصر ، لقد وهب الله له القدرة على أن يرى بعينه بوضوح أشياءً في الجنة تبعد عنه مسافات أكبر من المسافات المنقول صورها عبر وسائل الإتصال في الدنيا ويتنقل داخل الجنة بسرعة قد تزيد عن سرعة البرق التي يمر بها الصالحون فوق الصراط المنصوب على ظهر جهنم وعن سرعة البراق الذي ركبه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج فكانت كل خطوة من خطواته تبلغ مد البصر ، يقول عليه الصلاة والسلام (إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر في ملكه مسيرة ألفي سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلي أزواجه وخدمه)[2] ، فالله عز وجل قادر على أن يُري الإنسان شخوص الأشياء وليس صورها مهما بَعُدَت عنه وهذا هو قمة الإنجاز يقول عليه الصلاة والسلام (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منه) [3] فالله سبحانه وتعالى كما أنه قادر على أن يمد الأرض فهو قادر أيضاً على أن يزويها ويطويها ليراها نبيه رؤية حقيقية ، وفي قصة الرجل الذي قتل مائة نفس ثم تاب إلى الله وترك بلد السوء متجهاً إلى البلد الطيب فمات في الطريق فأراد الله أن يقرب ما بينه وبين البلد الطيب ليكون من أهلها

(١) آية ٥٥ الصافات (٢) رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني (٣) رواه مسلم

ولتقبض روحه ملائكة الرحمة فأمر الله الأرض التي بينه وبين البلد السيئة فانبسطت وتمددت وأمر الأرض التي بينه وبين البلد الطيب فانقبضت فسبحان الذي لا يعجزه شيء مهما استحال على عقول البشر .

اذن الإعتقاد بأن الفيلم التسجيلي هو قمة الإنجاز هو إعتقاد خاطيء ، أما قول فضيلة الشيخ ألا يستطيع الله أن يفعل ذلك ؟ بالطبع يستطيع الله أن يفعل ذلك ولكن حاشاه أن يقلد أفعال وابتكارات خلقه حتى ولو كانت مستمدة من القوانين التي خلقها وأودعها لهم في هذا الكون فالله لابد أن تكون أفعاله متميزة عن أفعال خلقه لأنه البديع الذي يوجد الأشياء على غير مثال سابق .

إن أفعال الله لا تحكمها قوانين العلم كأفعال الناس حتى يقول فضيلته ألا يستطيع الله أن يضع في ذرات هذا الكون ما يتم به هذا التسجيل ، إن أفعال الله خاضعة للعلم الإلهي اللامحدود وللمشيئة الإلهية التي تقول للشيء كن فيكون .

وبالمثل أسلحة الدمار الشامل فإن الله لم يمد الإنسان بالقدرة على تدمير الأشياء إلا لعلمه بأنه قادر على إصلاح ما سيتلفه الإنسان بهذه الأسلحة الفتاكة وإعادة الحياة والبناء إليها من جديد وإلا ما مكّنه الله من ذلك وستظل الآية القرآنية تردد على مسامعنا حتى يوم القيامة قوله تعالى ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [1] فإن علم البشرية مقارنة بعلم الله تعالى كقطرة ماء واحدة مقارنة بمياه بحار الدنيا .

قال لي أحد المفتونين بالعلم البشري الحديث بأن القوة التدميرية البشرية قادرة على تدمير الكرة الأرضية ٢٤ مرة وليس مرة واحدة فلا يُستبعد إذا حدث ذلك أن تحدث القيامة فقلت له إن القيامة ستكون من فعل الله وليس من فعل الناس وستأتي بغتة لمن كان حياً في ذلك الوقت يقول تعالى ﴿ **حتى إذا جاءتهم الساعة**

---

(١) آية ٨٥ الإسراء

بغتة ﴾[1] ويقول ﴿ **بل تأتيهم بغتة فتبهتهم** ﴾ [2] وإن هذه القيامة لن تكون للكرة الأرضية وحدها وإنما للسموات والأرض وما بينهما من الكواكب والنجوم التي تزيد عن حجم الكرة الأرضية بلايين المرات وليس ٢٤ مرة كما تقول أي أن هذه القدرة التدميرية البشرية عاجزة عن تدمير الكون بأكمله ، يضاف إلى ذلك أن هذا التدمير الأرضي الذي هو من صنع البشر يعجز عن تحريك الجبال من مواضعها ونسفها ودكها دكاً ليس فيه بروز أو اعوجاج ثم تحويلها إلي هيئة الصوف المنفوش ثم تحويلها إلى ذرات تتطاير فتصبح هباءً منبثا والأرض تدك وتنشق والبحار تفجر وتحترق وغير ذلك من الظواهر التي تحتاج إلى قوة تدميرية فائقة يعجز عنها العلم البشري .

أيضاً بعض المفتونين بالعلم البشري الحديث يرون أن وسائل المواصلات الحديثة من طائرات وسيارات التي هي من صنع البشر أفضل من الدواب التي هي من خلق الله لأنها أسرع ومن وجهة نظرهم أنها أجمل وكأنهم يقارنون بين صنع البشر وصنع الله وبين قدرة البشر وقدرة الله ويتعجبون أن نبينا محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ركب البراق وهي دابة أصغر من الحصان وأكبر من البغلة وأن أهل الجنة يركبون الدواب وليس السيارات ولا الطائرات ولا الصواريخ ولا مركبات الفضاء وكأنهم بذلك يعتقدون بأن الدواب علامة تخلف وبدائية أما السيارات والطائرات الحديثة وغيرها فهي علامة تطور وتحضر .

رداً على ذلك نقول بأن الله لا يقلد أحداً من خلقه وسنقارن بين دواب الدنيا وهذه المواصلات الحديثة ثم نقارن بين دواب الجنة وهذه المواصلات الحديثة ونجمل ذلك في الآتي :-

اولا :

لوكان صنع الطائرات والسيارات أشد إعجازاً من خلق الدابة لتمكنوا من

---

(١) آية ٣١ الأنعام (٢) آية ٤٠ الأنبياء

خلقها إذ المعلوم أن الذي يأتي بالإعجاز الأكبر قادر على أن يأتي بما هو أصغر منه ولكنهم لا يستطيعون خلق ذبابةٍ واحدة .

ثانيــاً:

بصرف النظر عن اختلاف السرعة التي جعلها الله فتنة لهم فإننا لا نجد الدواب يصطدم بعضها ببعض وتتسبب في الحوادث والنكبات لمن تحملهم لأنها كائنات حية مدركة للمخاطر التي أمامها فإذا واجهتها مخاطر انحرفت عنها أو توقفت عن السير إلا أن يكرهها الراكب على ذلك أما السيارات فإنها جمادات صماء عمياء لو غفل عنها السائق أو أخذته غفوة من النوم لحدثت كارثة .

ثالثــاً:

والدواب لا تسبب فضلاتها تلوثاً بيئياً يؤثر على صحة الإنسان والحيوان بينما يسبب عادم السيارات والطائرات وأدخنتها السامة تلوثاً بيئياً ، وتسبب أصواتها ضجيجاً يؤثر على مسامع الإنسان وأعصابه ، وتُضعف أضواؤها من قوة الإبصار .

رابعــاً:

وحتى لا يفتتن الناس بما تتمتع به السيارات والطائرات والصواريخ والمركبات الفضائية من القوة والسرعة المذهلة فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بأنه خلق مخلوقات لو قارناها بها لوجدناها أقوى وأسرع منها بكثير كالجان الذي يرتفع من الأرض إلى السماء الدنيا ليسترق السمع والملائكة التي تجوب السموات والأرض في لمح البصر بقوة خارقة والكواكب والنجوم التي تدور في أفلاكها بقوة وسرعة فائقة ، ولقد أخبرنا الله بأن عرش ملكة سبأ قد نقله الله من اليمن إلى فلسطين في لمح البصر ببركة كلمات نطق بها عبد رباني عِنْدَه عِلْم من الكتاب سأل الله باسمه الأعظم فأجابه الله إلى طلبه فأي وسيلة مواصلات حديثة وعملاقة في

عصرنا هذا تستطيع أن تحمل مثل هذا العرش في حجمه ووزنه من اليمن إلي فلسطين في لمح البصر ؟

خامساً:

لو أراد الله أن يصنع وسيلة مواصلات من الحديد فحتماً سيختلف صنع الله عن صنع البشر ﴿ **صنع الله الذي أتقن كل شيء** ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى كما ذكرنا لا يقلد أحداً من خلقه في أفعاله بل لابد أن تكون أفعاله لها صفة التميز والإعجاز فلا يستطيع أحد من خلقه أن يأتي بمثلها ، حتماً سيخلقها الله من الحديد خلقاً آخر فلا تكاد تصدق من إبداع الخالق أنها من الحديد تماماً كما خلق الإنسان من الطين خلقا آخر فلا تكاد تصدق من ابداع الخالق وإتقانه أنه مخلوق من الطين حين تنظر إليه يقول تعالى ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين** ﴾ [1] ثم قال بعد ذلك ﴿ **ثم أنشأناه خلقاً ءاخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ [2] ، أما الإنسان فإنه يتعامل مع ألواح الحديد كما هي دون تغير ، فإذا قيل بأن الله خلق سماءً من حديد وسماءً من نحاس وسماءً من فضة وسماءً من ذهب وهكذا فليس كما يتوهم الناس أن السماء ستكون ألواحاً متراصة من إحدى هذه المعادن ولكنها بلا شك بعد أن أصابتها لمسة الإبداع والتخليق من الخالق المبدع فسوف تكون أجمل من ذلك بكثير ، وكذلك الجنة التي بناؤها من الذهب والفضة وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران وخيامها وقصورها من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت ونساؤها من الحور العين من المسك والزعفران كأنهن الياقوت والمرجان وكذلك دواب الجنة ... جميع هذه المخلوقات بعد أن أصابتها لمسة التخليق والإبداع من الخالق المبدع صارت أجمل بكثير من مادتها التي خلقت منها .

---

(١) آية ١٢ المؤمنون (٢) آية ١٤ المؤمنون

سادساً:

وحتماً إذا أراد الله أن يخلق وسيلة مواصلات من الحديد مثلاً أو أي معدن آخر فسوف يجعلها كائناً حياً يتحرك بالروح من تلقاء نفسه ويضع فيها الفهم والإدراك حتى تميز ما يعترضها من مخاطر فتتجنبها وستكون فضلاتها نافعة للبيئة وليست ضارة وستكون سرعتها مذهلة بلا تصادمات ولا حوادث ولا مخاطر كسرعة البراق وهو كائن حي على شكل دابة سرعته تفوق سرعة البرق أي تفوق سرعة الضوء .

إن كون المواصلة الإلهية عبارة عن دابة من الدواب لا يعد علامة تخلف وبدائية وإنما عجز البشرية عن تطوير مواصلاتها الجمادية الصماء العمياء إلي كائنات حية أو دواب لها نفس السرعة هو التخلف والبدائية بعينها علماً بأن البشرية قدمت أقصى ما عندها أما الله فلم يقدم أقصى ما عنده .

إذا أراد الرجل من أهل الجنة أن يطير بنفسه في سماء الجنة لأمكنه الله من ذلك يقول تعالى ﴿ **لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ [1] ولو أراد أن يجوب في أرض الجنة وفي سمائها بالسرر الموضونة التي يتكيء عليها لتم له ذلك ، ولو أراد أن يجوبها بالدواب لتم له ذلك ، ودواب الجنة تمتازعن مواصلاتنا الحديثة بأنها أجمل خلقت من معادن أرقى وأنفس وهي أسرع مما يخطر لنا على بال ، وأعظم هذه المزايا أنها كائنات حية عاقلة مدركة لو كانت في دنيا الناس فطارت بالرجل في السماء أو انطلقت به على الأرض لأوصلته في لمح البصر إلى بر الأمان دون أن يصاب بأي أذى عارفة بالجهة التي يريدها راكبها لا تحتاج إلي قيادة أو إرشاد تماماً كما تعرف الطيور الجهة والمكان الذي تهاجر إليه ، كما أن هذه الدواب في الجنة تؤنس راكبها فهي تفهم منه كلامه وتجيبه وتنطق بين يديه وتحبه وتسعى

---

(١) آية ٣٥ ق

لراحته وإسعاده ، فإحساس الإنسان بأنه يتعامل مع كائن حي مثله يختلف تماماً عن الوحشة والملل اللتين يشعر بهما إذا تعامل مع آلة جمادية صماء توصله من مكانٍ إلي مكان ، فالحياة والحركة والحيوية تدب في جميع أرجاء الجنة من كائنات حية وحتى الجمادات فالأشجار تتدلى بأغصانها إلى الرجل من أهل الجنة سواء كان واقفاً أو جالساً أو راقداً في متناول يده ليقطف من ثمارها ويأكلها يقول تعالى ﴿ **وذللت قطوفها تذليلاً** ﴾ [1] ويقول ﴿ **قطوفها دانية** ﴾ [2] ، والريحانة تهتز يقول النبي ﷺ عن الجنة (هي ورب الكعبة نورٌ يتلألأ وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد) [3] ، والأنهار تجري بلا توقف ، والأشجار تتمايل لسماع أصوات الحور العين ، وإذا قرأ الله جل شأنه سورتي الرحمن والأنعام على أهل الجنة اهتزت أرض الجنة وجميع ما فيها طرباً وشوقاً لكلام خالقها جل وعلا .

إذن حتى الجمادات في الجنة واعية مدركة عاقلة فيها الحياة والحيوية وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿ **وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ [4] .

---

(١) آية ١٤ الإنسان (٢) آية ٢٣ الحاقة (٣) رواه ابن ماجه والبزار وابن حبان (٤) آية ٦٤ العنكبوت

الوقفة الخامسة عشر

القول بأن الله خلق نور النبي ﷺ أولا ومن نوره خلقت الأشياء

الوقفة الخامسة عشر

القول بأن الله خلق نور النبي ﷺ أولاً ومن نوره خلقت الأشياء

جاء في كتاب فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (أنت تسأل والإسلام يجيب) ص ٣٨ تحت عنوان (النور المحمدي وبداية الخليقة) في تعليق فضيلته على السؤال الآتي : [ورد في الحديث : أن جابر بن عبد الله سأل رسول الله ﷺ ما أول ما خلق الله ؟ فقال (نور نبيك يا جابر) فكيف يتفق هذا الحديث مع أن أول المخلوقين آدم وهو من طين ؟) أجاب فضيلة الشيخ بقوله (من الكمال المطلق ومن الطبيعي أن يكون البدء بخلق الأعلى ، ثم نأخذ منه الأدنى ، وليس من المعقول أن تُخلق المادة الطينية أولاً ، ثم يُخلق منها محمد ، لأن أعلى شيء في الإنسان الرسل ، وأعلى شيء في الرسل محمد بن عبد الله ، إذن لا يصح أن تخلق المادة ، ثم يخلق منها محمد ، لابد أن يكون النور المحمدي هو الذي وجد أولاً ومن النور المحمدي نشأت الأشياء ويكون حديث جابر صادقاً] .

أخالف فضيلة الشيخ في اجتهاده سالف الذكر للأسباب الآتية :-

أولاً:

هذا الاجتهاد يخالف النص الشرعي ومن المعلوم أنه لا اجتهاد مع وجود النص . قال رسول الله ﷺ (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة) [1] ، وفي رواية (أول ما خلق الله القلم قال له أكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) [2] .

(١) رواه مسلم (٢) رواه الترمذي وأبو داود

ثانيـــاً:

حديث جابر الذي صرح فضيلة الشيخ بأنه صادق قد أجمع جمهور العلماء وعلماء السلف على

بطلانه سنداً ومعناً ولقد ذكره الشيخ محمد ناصر الدين الألباني ضمن الأحاديث الموضوعة .

ثالثـــاً:

قال رسول الله ﷺ (إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) [١] . وفي رواية (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة) [٢] .

يُفهم من ذلك أن الله كتب أقدار المخلوقات قبل أن يخلقها والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ [٣] أي بقدر سابق ، ومعلوم أن القلم هو الذي يكتب الأقدار بأمر الله تعالى من أجل ذلك كان القلم هو أول ما خلق الله لأنه سيقوم بتدوين أقدار المخلوقات التي ستأتي من بعده .

إذن فالآية الكريمة ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ تنسجم مع الحديثين الصحيحين وتشهد لهما بالصحة وهما قول النبي ﷺ (أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة) وقوله (أول ما خلق الله القلم قال له أكتب فقال يارب وما أكتب ؟ قال أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة) .

وبناء على ذلك فإننى أسأل فضيلة الشيخ أليس محمد ﷺ أو النور المحمدي (على حد تعبيره) يعد مخلوقاً من مخلوقات الله ؟ إذن فهو مسبوق بالقدر لعموم

---

(١) رواه مسلم (٢) رواه مسلم والترمذي (٣) آية ٤٩ القمر

قوله تعالى ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ أي أنه مسبوق بالقلم الذي يكتب مقادير كل شيء ، فكيف إذن نقول بأن محمداً ﷺ أو النور المحمدي هو أول ما خلق الله ؟

رابعـاً:

يقول فضيلة الشيخ (ومن النور المحمدي نشأت الأشياء) ثم نجده في موضع آخر من نفس الكتاب ص٤٠ يقول (الله خلق الأشياء من نوره «أي من نور الله» معنى هذا أن شعاع نوره خلقت منه الماديات) لا يخفى ما في كلام فضيلة الشيخ من تناقض فقد سبق أن ذكر بأن الأشياء خلقت من النور المحمدي ثم تراه يقرر بأن الأشياء خلقت من نور الله وكلا المقولتان لا دليل عليهما من الكتاب والسنة إن هي إلا عبارات صوفية أو فلسفية لا تستند إلى نص شرعي بسندٍ صحيح .

خامسـاً:

أما قول فضيلة الشيخ (ومن الطبيعي أن يكون البدء بخلق الأعلى ثم نأخذ منه الأدنى) يقصد بالأعلى النور المحمدي وبالأدنى طينة آدم لكي يبرهن على أن محمداً خُلق قبل آدم وقد صرح بذلك حيث قال (لابد أن يكون النور المحمدي هو الذي وجد أولاً) .

إن هذه الفلسفة العنصرية في تفضيل عنصر النور على عنصر الطين شبيه بالفلسفة العنصرية لإبليس في تفضيله عنصر النار على عنصر الطين قال تعالى عن إبليس ﴿ **قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين** ﴾ [1] فالخلق لا يتفاضلون عند الله بمادة خلقهم لأنهم لا حيلة ولا فضل لهم في ذلك وإنما يتفاضلون بتقواهم قال تعالى ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [2] ومحمد ﷺ هو

(١) آية ٧٦ ص (٢) آية ١٣ الحجرات

سيد ولد آدم لأنه أتقاهم لله وأفضلهم خُلقاً قال تعالى ﴿ **وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم** ﴾ [١] فالمخلوق ليس له كرامة عند خالقه إلا بالإيمان والتقوى والعمل الصالح فإذا تجرد من ذلك فما أهونه عند الله حتى ولو كان نبياً مرسلاً قال تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ **ولقد أُوحيَ إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ [٢] وقال له ﴿ **ولا تجعل مع الله إلهاً ءاخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾ [٣] .

ثم ما هو المقصود بالنور المحمدي ؟

إن كان المقصود أن محمداً خُلقت مادته من النور فهذا يتعارض مع نصوص القرآن والسنة التي ذكرت بأن محمداً بشرٌ مثلنا وبأن آدم عليه السلام أول البشر وهو من ذريته وبأن آدم عليه السلام خُلق من الطين بينما الملائكة هي التي خُلقت من النور وليس البشر .

أما إن كان المقصود أن محمداً خُلقت روحه من النور فإن روحه مثل روح سائر البشر لا يعلم كنهها إلا الله قال تعالى ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلمِ إلا قليلاً** ﴾ [٤] .

ولفضيلة الشيخ آراء أخرى تتعلق بأصحاب الأضرحة الذين أسماهم الناس بأولياء الله الصالحين وهم من أصحاب المذاهب الصوفية ولا يتسع المجال للتعقيب على آراء فضيلته في هذا المجال ولكنني أنبه القارىء إلى النقاط التالية :-

اولاً :

لا يوجد دليل جازم على أن أصحاب الأضرحة هم من أولياء الله الصالحين فلاهم من الأنبياء والمرسلين ، ولاهم من المبشرين بالجنة ، ولا هم من الصحابة الذين قال عنهم رسول الله ﷺ (الله الله في اصحابي لا تتخذوهم غرضاً فمن

(١) آية ٤ القلم (٢) آيتي ٦٥ ، ٦٦ الزمر (٣) آية ٣٩ الإسراء (٤) آية ٨٥ الإسراء

آذاهم فقد آذاني)[1] ، (دعوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم)[2] .

ما أصحاب الأضرحة إلا قوم قد أفضوا إلى ما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر لا نمتدحهم ولا نسبهم فالله أعلم بهم .

ثانيــــا:

هؤلاء موتى وعباد أمثالنا لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم نفعاً ولا ضراً وهم في أشد الحاجة إلى رحمة الله والدعاء لهم ومن حقهم علينا شأن أهل القبور من المسلمين أن نزورهم ونسلم عليهم وندعوا لهم بالرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ولكن لا نشد الرحال لزيارتهم ولا ينبغي أن نتخذ من قبورهم مساجد لورود النهي عن ذلك ولأن المساجد لله وحده ولأن المقابر من الأماكن التي يحرم فيها الصلاة .

ثالثــــا:

على افتراض أن منهم صالحين ونحن نحسن الظن بهم إن شاء الله فإن الله قد حرم علينا التمسح والتبرك بهم ودعاءهم والإستغاثة بهم وأن نعتقد فيهم النفع والضر فهذا شرك أكبر وخروج عن الملة .

وهؤلاء مانالوا درجة الأولياء الصالحين (على افتراض ذلك) الا باتباعهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وقطعاً لا يرضيهم ما يفعله الناس بهم من تنصيبهم شركاء من دون الله ولو استطاعوا لنهوهم عن ذلك ويوم القيامة يتبرأون منهم ومن أفعالهم فإذا كنا محبين لهؤلاء الأولياء الصالحين فعلينا بدلاً من التمسح والتبرك

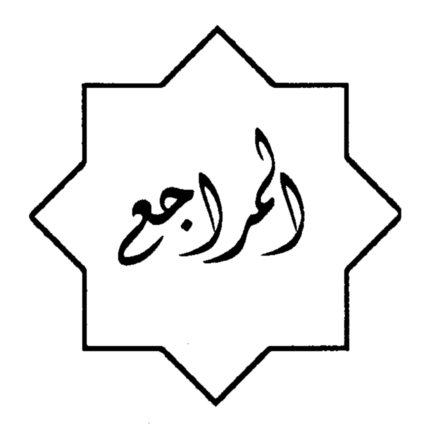
---

(١) رواه الترمذي (٢) رواه أحمد

بهم أن نسلك دربهم ونتمسك بالكتاب والسنة ونقتدي برسول الله ﷺ عملاً بقوله تعالى ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ [1] وبذلك نكون مثلهم من أولياء الله الصالحين .

تم الإنتهاء بحمد الله من تدوين هذا الكتاب في تمام الساعة الخامسة من مساء يوم الجمعة السابع عشر من شهر ذي القعدة عام ١٤١٦هـ الموافق الخامس من شهر ابريل عام ١٩٩٦م بمكة المكرمة .

(١) آية ٢١ الاحزاب



١ - القرآن الكريم

٢ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للإمام الشوكاني .

٣ - صفوة التفاسير ومختصر تفسير ابن كثير للشيخ محمد على الصابوني .

٤ - تفسير في ظلال القرآن للشيخ سيد قطب .

٥ - سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني .

٦ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري للعسقلاني .

٧ - صحيح مسلم بشرح النووي .

٨ - جمع الفوائد للإمام محمد بن سليمان المغربي .

٩ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي .

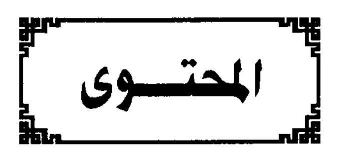
١٠- المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح للحافظ أبو محمد شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي .

١١- رياض الصالحين للإمام النووي .

١٢- أصول الإيمان للإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب .

١٣- الأسئلة والأجوبة الأصولية علي العقيدة الواسطية للشيخ عبد العزيز المحمد السلمان .

١٤- عقيدة المؤمن للشيخ أبو بكر الجزائري .



المحتوى